اللطف عند الأكويني وعند الشيعة

عن مجلة «نقد ونظر» العدد الأول

حسين واله

باحث

المقدمة:

من بين المفاهيم الرئيسة والمهمة جداً في علم الكلام المسيحي هو مفهوم اللطف (الإلهي) Grace، وفي قبال هذا المفهوم في الكلام الشيعي هو قاعدة اللطف، وهي من المسائل المهمة ذات الإطلاقات الواسعة. قد يطرأ أول الأمر هذا السؤال على الخاطر: ما العلاقة بين هذين المفهومين؟

البحث التالي يحاول تعريفهما ومعرفة العلاقة بينهما.

إن اتساع أطراف قاعدة اللطف في الكلام عند الشيعة أمر واضح إلى حدٍّ ما. هذه القاعدة يستند إليها في مسائل مهمة مثل النبوة العامة، والإمامة، والعصمة، وتسويغ أُمور أُخرى مثل العذاب والثواب والعقاب، وأحياناً كانت تتعدى ذلك إلى الفقه، وخاصة في باب النهي عن المنكر. لقد تقبل معظم المتكلمين الشيعة هذه القاعدة، كل وفق توجيه خاص.

في الكلام المسيحي تولى عناية كبيرة بالمباحث الخاصة باللطف الإلهي. في القرون المسيحية الوسطى وضع نظام كلامي خاص تحت عنوان «إلهيات اللطف»، مما أدى إلى تحولات لافتة للنظر في تاريخ المسيحية بسبب الانطباعات التي تحصل من هذه الفكرة. إذا قلنا إن فكرة اللطف في سلسلة المفاهيم تأتي على رأسها لا نكون مبالغين. هذه الفكرة هي حلقة الوصل بين المفاهيم الرئيسة في هذا الدين، وتنعكس فيها التغييرات النظرية الكلامية والفلسفية انعكاساً بيّناً.

واليوم، إذ يدور الكلام على الحوار بين الأديان مرة أُخرى، يحسن أن نضع على مائدة البحث بعضاً من التعاليم المهمة في الاسلام والمسيحية ودراستها دراسة تطبيقية واستخراج ما يمكن أن يكون فيها من مادة أصيلة. هذه المقالة خطوة قصيرة أولية على هذا الطريق.

بالنظر لاتساع نطاق البحث في الكلام المسيحي،

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

نكتفي في هذا البحث بدراسة وجهة نظر المتكلم المسيحي الشهير (توما الأكويني) Saint Thomas Aquinas. طبعاً سوف نورد مقدمة قصيرة حول التطور التاريخي لفكرة اللطف في دنيا المسيحية بقصد تعرّف الجو العام لهذا البحث. والنظرة الأدق ستكون عن وجهة نظر الأكويني، ثم نقارن وجهة النظر هذه في الختام مع وجهة نظر شيعية.

عند البحث في الكلام الشيعي سوف نقدم تقارير عن موضوع اللطف من تقريرات المرحوم الخواجة نصير الدين الطوسي، والعلامة في (شرح التجريد)، والمرحوم السيد اسماعيل الطبرسي النوري في (كفاية الموحدين)، ثم نبدأ بتقويم هذين المفهومين وبدراسة أُصولهما ومفروضاتهما الموضوعة، ومن ثم نقوم برسم صورة عامة لوجهة نظر الشيعة تجاه اللطف.

بعد ذلك نقوم بمقارنة إجمالية وقصيرة بين صورتي نظرية اللطف، مارّين بوجوه التشابه والاختلاف بينهما من حيث شكل طرح المسألة ومحتواها.

وخلال البحث قد نعلق تعليقات موجزة على النظريات والأدلة المطروحة، وهي بقصد إلقاء مزيد من الضوء على بعض الجوانب المبهمة التي تبقى خافية عادة بعد قبول آراء كبار الشخصيات. الهدف من هذه الملاحظات إن هو إلا طرح المسألة، آملين أن يقوم المفكرون بحل العقد وباقتراح الطرق المناسبة لحل المشكلات.

ولكي نحافظ على الاختصار قمنا ـ أحياناً ـ بحذف بعض من المباحث الكلامية عند كلا الجانبين ـ المسيحيين والشيعة ـ مع بيان مواضع الحذف، وقد كان دافعنا لهذا الحذف إما تجنب التكرار، وإما تجنب طرح مسائل بدت في كلا الجانبين غريبة بعضها عن بعض بحيث أصبح من الصعب اجراء المقارنة بينهما. وقد اخترنا المصطلحات الكلامية اللاتينية من دون الرجوع إلى الترجمات والمرادفات التي يطرحها المترجمون، لذلك فقد تختلف هذه عن الاصطلاحات الدارجة اليوم. ولهذا أدرجنا أصل المفردة في الهامش.

١ ـ سير التطور التاريخي لفكرة اللطف في الكلام المسيحي

اتخذنا اصطلاح (اللطف) كمعادل للفظة الأجنبية Grace المشتقة من لفظتي gratia اللاتينية وcharis اليونانية[١١]، وفي الفارسية (والعربية) قد تترجم بلفظة الفيض. يحمل هذا المصطلح، في دنيا المسيحية، جملاً من المفاهيم المعنوية والقيمية الثمينة لم تفقد أهميتها على الرغم من تطور مضامينها على امتداد التاريخ. كما سوف نرى. إن المعنى اللغوي لهذه اللفظة هو عناية الله التي يسبغها على الإنسان ونتيجتها، وكذلك الطاقة التي تنشأ من الله وتؤدي إلى غفران ذنوب الإنسان وإلى خلاصه[٢١]. وهناك تفاسير متنوعة لماهية اللطف تجتمع مع معناه اللغوي في عائلة واحدة.

نبدأ التفسير الأول بأشهر متكلم مسيحي وأشدهم تأثيراً في صدر المسيحية، وهو (القديس بولص). إن شرحه لمضمون اللطف ينطوي تحت نظرته الثورية لأهم حدث في التاريخ المسيحي، أي ظهور عيسى المسيح، وصلبه وعروجه. نظرته تلك يمكن أن تعد أساس الكلام المسيحي في القرون التالية له، ونقطة انعطاف في التفسير الباطني والعرفاني للدين. يعتبرون القديس بولص، من جهة، منقذ الدين المسيحي، إذ بعد مضي زمن طويل على صلب عيسى عليه السلام وعروجه، ظل مسيحيو صدر المسيحية ينتظرون عودته المظفرة من أجل إقامة مملكة الله على وفق الوعود التي قطعها، فوقفوا حياتهم على التبشير بعودته، وتجمعوا في مجامع دينية بانتظار حلول آخر الزمان وظهور عيسى عليه السلام ثانية، ولكنهم فقدوا شيئاً فشيئاً الأمل في عودته وأخذ الشك يراودهم في رجوعه.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

في مثل هذه الظروف جاء القديس بولص بنظريته الثورية قائلاً إن مملكة الله ليست أرضية، وفسر ذلك تفسيراً باطنياً ينطبق على شخص المسيح عيسى عليه السلام، فكشف أفقاً جديداً في المسيحية للمسيحيين. اعتبر بولص تجلي الله في المسيح، وقبوله تحمل العذاب عن البشر وصلبه «فيضاً» إلهياً على البشر يضمن لهم غفران الذنوب والحياة الخالدة في المسيح. إن شرط وصول الإنسان لهذا الفيض هو الانتماء إلى الكنيسة والإيمان بالمسيحية. وعلى المستوى نفسه يكون لطف الله بمثابة تدخل رحيم وكريم لنجاة الإنسان وانقاذه من الذنب، وقد تجلى كل ذلك في حياة المسيح، وتعاليمه، وصلبه، وعروجه. يكتب بولص الى الروم قائلاً:

«إذن لم تعد هناك أية محكومية على الذين يعيشون متّحدين في المسيح عيسى، لأن أمر روح القدس المحيي الذي يوجد في الاتحاد بالمسيح قد حررني من أمر الإثم والموت. إن ما لم تستطع الشريعة تحقيقه بسبب ضعف طبيعة الإنسان، قد حققه الله. لقد أرسل ابنه في صورة انسان مجسم آثم من أجل غفران ذنوب بني البشر، وبذلك أدان الإثم في ذات الإنسان. فعل الله هذا لكي تتحقق الشريعة على أيدينا نحن المتحررين من طبيعتنا النفسانية والمطيعين لروح الله، وذلك لأن الذين يحيون على وفق هوى النفس، يفكرون دائماً في أهوائهم النفسية، أما الذين يطيعون روح الله فيفكرون في أمور روحانية... فاذا كان المسيح يسكن في وجودكم، فحتى لو أن جسدكم أصبح محكوماً عليه بالموت بسبب الإثم، فإن روح الله يهبكم الحياة»[٣] و«.... الجميع مذنبون ومحرومون من جلال الله، ولكن الجميع بفيض الله ووساطة المسيح عيسى الذي يحررهم، يصبحون أخياراً بكرمه»[٤]. «إننا لإيماننا بالمسيح دخلنا الفيض الإلهي»[٥].

إن انطباع بولص عن اللطف عمل يقوم به الله برحمته بالإنسان لتحريره من الذنب والموت، وعلى هذا تعتمد الحياة الخالدة والنجاة الأبدية. هذا العمل يجري للجميع، وأكبر تجليه هو مصير المسيح، الإنسان المحروم من هذا اللطف يكون أسير الإثم ومحكوماً بالموت، ويحرم من جلال الله.

لابد من القول إن توكيد بولص عامل الإيمان رد فعل للتظاهر بالتقدس والمراءاة على وجه العموم للجماعات اليهودية المعاصرة له، وخاصة الفراسيين Pharisees الذين كانوا من ألدّ أعداء المسيحيين. وفي الوقت الذي كانوا يتمسكون بظاهر الشريعة الجاف باعتباره وسيلة الخلاص، يتذرعون بقيام المسيح او المسيحيين بنقض بعض مظاهر الشرع ولا يتورّعون عن تعذيبهم وإيذائهم. بولص، الذي يعتبر دور الشرع ثانوياً بالنسبة إلى الإيمان، يفتي بعدم جدوى الجمود على الشرع. هذا الانعكاس يفسر أحياناً على أنه مخالف للشريعة وإلغاء تفسيره. من هنا بدأت الباطنية ويصبح لعامل الإيمان أهمية كبرى في الخلاص في نظرية بولص. جذور هذا الاتجاه تظهر في الفصل السادس من الرسالة المذكورة:

«... وذلك لأننا إذا اتحدنا في موت مثل موته ـ عيسى ـ معه، بالطريقة نفسها سوف نتحد معه في قيامة مثل قيامته أيضاً. إننا نعلم أن الانسان الذي كنّاه من قبل مع المسيح فوق الصليب. إنه قتل لكي يقضي على النفس الآثمة ولكي لا نكون موتى الإثم، لأن الذي يموت يتحرر من الإثم. إذا متنا مع المسيح، نكون واثقين بأننا سوف نعيش معه، لأننا نعلم أنه عندما يكون المسيح قد عاد إلى الحياة بعد الموت، فإنه لن يموت بعد ذلك أبداً، أي إن الموت لن يغلبه أبداً، لقد مات المسيح، وبموته يكون ميتاً بالنسبة للإثم، ولكنه عاد الى الحياة ويحيا لله. كذلك عليكم أنتم أن تعتبروا أنكم ميتون بالنسبة للذنب ولكن بالنسبة لله فأنتم متحدون مع المسيح وأحياء،

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

ويـنبغي بـعد ذلك أن لا يسـيطر الإثـم عـلى أجسـادكم الفانية ويجعلكم مطيعين لأهوائكم، لا تضعوا أي عضو من أعضاء بدنكم تحت تصرف الإثم حتى لا يستخدمه في طريق الشر، بل استسلموا لله، واجعلوا كل وجودكم تحت تصرفه، كالإنسان الذي عاد إلى الحياة بعد الموت، حتى تستخدم أعضاؤكم في سبيل الخير، فالإثم يـجب أن لا يتسلط عليكم، لأنكم لستم تـابعين للشـريعة، بـل أنتم تحت فيض الله»[٦].

اتجاه القديس بولص إلى الباطنية ومكافحته الجمود في مظاهر الشريعة، كشفا له عن بـعد جـديد فـي فـهم لطف الله. لطف الله ليس مقصوراً عـلى الإتـيان بـالشرع لاستكمال الإنسان، بل إنه يتعدى ذلك وهو أقرب وأكثر حميمية. يتجلى لطف الله في الأحداث التاريخية لكي يُعد الإنسان تكوينياً لخلاص البشر، ويـخلق الانـجذاب فـي قلب المـؤمن. لطـف الله يـرتبط بـالوحي الإلهـي، ولكـن بالمفهوم الخاص الذي يستنتجه الكلام المسـيحي مـن الوحي. أي إن تجسيد ابن الله في جسم الإنسان كظاهرة واقعية وجانبه القيمي كرسالة إلهية وتكليف أخـلاقي وشـرعي، حـائل اللـون. لذلك فـإن اللـطف كـتدخل فـي أُسلوب الأحداث التكوينية والإنسان بـوسيلة نـوع مـن التمازج الروحي والمعنوي، هو الذي يوصل إلى الكمال والخلاص، لا اتباع آداب الشرع.

التغير الأول فـي فكـرة اللـطف نـجده عـند القـديس أوغسطين، لإلقاء الضـوء عـلى هـذه النـظرة، لابـد مـن دراسة التمهيدات التـاريخية التـي أدت الى ذلك. يشـير مؤرخـو المسـيحية إلى انـفصال حـالتين دينيتين بـعد القرن الثاني، الأُولى هي حـالة الكنيسة الشـرقية التـي وقعت تحت تأثير الأفكار (الاسكندرية) واضـعاً أُسس الروحانية والرهـبانية العـرفانية والتـزم تـربية انسـان جديد يكون معبداً لروح الله. وقد استخدم أساليب الزهد العــرفانية، أو العــبادة والتأمــل، ليس لبــلوغ مـرحـلة الكرامات وخوارق العادات فحسب، بل لبلوغ وجهة نظر عرفانية تقوي مـن الايـمان بـذات عـلام الغـيوب. هـذه المدرسة توصي بالاتباع المباشر لمثال المسيح عيسى للوصول إلى كماله الذي بـلغه، وتـرى ذلك مـمكنا. أمـا الكنيسة الغربية المتأثرة بتعاليم أوغسطين، فـترى الله منشغلاً بأن يحفظ ويرمم جوانب مـن العـالم المـتهدم، وإحياء الانسان الذي سقط بسبب الذنوب. إنها تعتقد أن متكلمي الشرق قد استهانوا بالنتائج المـدمرة للـخطيئة الأُولى، ولم يحسبوا حساب رغبة بني البشر في الشـر والفساد كما ينبغي. الإنسان- في نظر أوغسطين له حق الاختيار، أي بالنسبة لأي فعل إرادي يستطيع ان يختار أحـد طـرفيه، أن يـفعله أو يـتركه، إلّا أن آثـار الخـطيئة الأُولى تلقي ثقلاً على كـاهل الإرادة الحـرة، والخـلاص منه لا يتم إلا بلطف الله، في هذا النظام الفكـري، اللـطف يؤلف أحد أضـلاع مـثلث مـن الإرادة والشـر. فـي هـذا التصور للطف إدراك جديد له باعتباره عاملاً مـمزوجاً بالوعد الإلهي والقدرة الإلهية التي تـلعب دور الوسـيط في حياة الإنسان. القديس أوغسطين كان يرى اللـطف قدرة إلهية لمعونة الإنسان وتفتح عـينيه عـلى الحـقيقة وتحمله على قهر رغبته في الشر.

التفسير الثالث للّطف يأتي من الحكيم المدرسي في القرون الوسـطى المسـيحية، القـديس تـوما الأكـويني. إنطباع الأكويني عن اللطف الإلهي يتناسب مع مجموعة النظم الفلسفية التي أقامها لإيجاد المصالحة بين الكتاب المــقدس والحكـمة الأرسـطية والبـرهنة عـلى العـقيدة المسيحية. وسوف نلخص وجهة نظره عن اللطف عـن رسالة له بهذا العنوان. إنما من المفيد الإشارة إلى أن كل جهد الاكويني ينصب عـلى جـعل الانـطباع الديـني عـن اللطف عقلانياً بما يتفق وأُسس الحكمة. إنه يرى اللطف قدرة إلهية، ولكنه، بخلاف اوغسطين، لا يراه يـنفع فـي الحصول على مطلق المعرفة وفعل الخير المطلق، بل في

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

اكتساب معرفة ما وراء البشرية، وإن فعل الخير أسمى من طبيعة الانسان الفطرية.

كان المتكلمون المسيحيون في القرون الوسطى يتابعون المباحث الخاصة باللطف بحماس. كانت الأسئلة تدور حول القدرة الإلهية التي تؤثر في الإنسان وتوصله الى ساحل النجاة. كانت علاقة الإرادة الحرة بهذه القدرة التي كانت تعتبر أحياناً- وبتأثير تطور العلوم التجريبية- قدرة آلية مسيطرة، مشكلة كبيرة، إن نسبة الإنسان المتناهي إلى الله غير المتناهي، في كل حالة من حالات شمول اللطف كانت مشكلة أُخرى، فابتدعت نظريات في الكلام المسيحي للخروج من هذه المآزق. من ذلك إن اللطف فعل الله المتناهي، وكل انسان يصدر عند رد فعل نفسي خاص به، وظهرت مدارس متنوعة أجابت كل واحدة منها عن تلك الأسئلة.

حتى القرن الثامن عشر كان الكلام المسيحي قد حفظ أن «القدرة الإلهية وفوق الطبيعية» من اللطف، على الرغم من أنه لم يكن يعرف ماهيته معرفة كاملة. وعند ظهور عصر التنوّر والعقلانية والإيمان بقدرات الإنسان، ازيحت فكرة «القدرة الإلهية» إلى جانب، وتمّت معرفة محب الخير بالفطرة، والشرّ الذي كان يرتكبه كان نتيجة التربية الاجتماعية الفاسدة. إن هذه المعرفة الجديدة للانسان كانت تحمل في طيات تغيرات عصر التنوّر ثورة أُخرى في اللطف. إن ما يؤدي إلى صلاح الإنسان وخلاصه هو حكمته وإرادته، والتاريخ هو حكاية الحضارات التي أخذت جذورها من الحكمة البشرية، وما الدين إلّا وجه من وجوه ذلك، بناءاً على ذلك لطف الله يعني عقل الإنسان وإرادته. صحيح أن هداية الإنسان وخلاصه من الله ولكن عن طريق قدرة مستقلة فوق آدمية تحرره من الاعوجاج، أو ـ كما يقول الأكويني ـ يهدى إلى خير أرفع منه وهذا لا يكون لأنه لا خير أرفع من سعه الإنسان. الهداية الإلهية هي ايداع العقل في الإنسان، لذلك فإن فعل الله كامن في الإنسان.

ثم توطدت مكانة بعض النظرات الكلامية الجديدة حول اللطف بتأثير الفلسفات المثالية في القرن التاسع عشر والعشرين، كمثالية هيجل، وأنزلته إلى مستوى حقيقة مهيمنة واحدة، يشار إليها باعتبارات وعناوين مختلفة، كالوعي والاختيار والروح والحقيقة. كل العالم هو وصول الوعي المطلق إلى مرحلة الفعلية، واللطف ليس سوى الحضور العيني المطلق منظوراً إليه من زاوية خاصة، لذلك فإن الفصل بين اللاهوتي والناسوتي، والسماوي والأرضي، قد أُزيح جانباً إلى الأبد. وفق هذه النظرة لم يعد اللطف الإلهي عاملاً معنوياً وقوة روحية خارج الإنسان، ولا هو جانب من هويته ووجوده، بل اعتبر حضوراً عينياً مطلقاً في الوجود اللامحدود.

أما وجهات النظر الأحدث للمتكلمين المعاصرين، مثل تيليج، راهنر و وتيلهارد، فبالنسبة للطف قد تشكلت تحت تأثير جو فكري غليظ معاصر كمزيج من علم الإنسان والوجودية والتاريخية. إن الصورة التي رسمها المتكلمون المشهورون للطف أجلست «أفق الوعي» عند الإنسان بمكان فعل الله وقدرته وتدخله، وكأن هذا التدخل يكون بدفع الوجود إلى وجهة هي صورة الماضي والمصير الآتي لذات البارئ نفسه. وهكذا يتخذ اللطف هوية سارية في اصل العالم. كان تيليج قد اعتقد أن مبدأ التحول في علم الحياة وفي الأخلاق ليس بيد الجينات، بل بيد اللطف الإلهي، أي ليس للطف هوية ما ورائية وخارجة عن حياة الإنسان الحقيقية والملموسة. اللطف هو حضور الله في ميدان وعي البشر الفسيح كما هو افق التاريخ الواسع. وبدلاً من تصور قدرة سماوية تقتلع قلب الإنسان من مكانه وتحمله على فعل الخير، ينبغي أن نتصور تصوراً أبهج وأكثر إنسانية عن «الحضور الصبور» الإلهي المنير

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

والداعي الغامض المتعالي، الحاضر بجد في آلام الحياة ومجدها[٧].

يمكن- على ذلك- القول- عموماً- إن تطور فكرة اللطف قد مرت بخمس مراحل. في المرحلة الأولى كان مضمونها يشمل تجلي الله في عيسى المسيح، حياته، موته وبعثه، وهو حدث تاريخي له أهمية وقيمة كبرى ومعنى عميق، كما أن له ارتباطاً وثيقاً وتأثيراً عميقاً جداً في حياة الإنسان، لأنه ينجيه من الموت الناجم عن ارتكاب الذنوب، ويوصله الى الخلاص والحياة الخالدة. في المرحلة الثانية يظهر اللطف بصورة «قدرة إلهية فوق طبيعية» ومنبع الفهم والهداية وكل خير في الحياة. في هذه المرحلة يتكرر لطف الله في كل خطوة من خطوات الإنسان في حياته، وكل الخير يرتبط به. في المرحلة الثالثة، وعلى أثر السعي العقلي من أجل عقلنة المفاهيم الدينية، يضيق مجال نفوذ اللطف وفعاليته (مع بقائه قدرة فوق طبيعية) ويحدده. إن معرفة المفاهيم الأسمى من المدركات العقلية اليومية، والهداية إلى الحياة الخالدة والخلاص الأُخروي، أُلقيت على كاهل اللطف، الذي جرد من أدواره الأُخرى بعد ذلك. في المرحلة الرابعة يجرد اللطف من صفة «قدرة فوق طبيعية»، وعلى أثر الاتجاه العقلاني والانساني، حدد مضمون اللطف بالعناية الإلهية في خلق الإرادة والعقل. وأخيراً، في المرحلة الخامسة عادت الحياة مرة أُخرى الى اللطف الإلهي، وبفضل علم الوجود التاريخي ومعرفة الإنسان وجودياً، ينفتح بسعة الواقع، ولكنه يكون قد فقد كلياً لونه كفوق طبيعي، ويتبدل إلى عنصر ذي معنى نظامي وتفسيري عن العالم المادي الحقيقي.

٢ ـ اللطف عند الاكويني

الفيلسوف والمتكلم الماهر المسيحي في القرون الوسطى في رسالة له تحت عنوان «مقالة عن اللطف» في ستة فصول تكلم فيها باسهاب عن اللطف. الأكويني، تلميذ مكتب ارسطو ومتأثر بحكمة المشائين، بذل جهوداً جبارة لعقلنة الإيمان المسيحي وإجراء المصالحة بين الدين والحكمة، إن اعتقاده بأُسس الفلسفة الأرسطية ونظرية الطبائع والمقولات، خلق بعض الصعوبات في تبيين بعض نصوص الكتاب المقدس وتسويغ بعض عقائد المسيحيين القدامى، وهناك أمثلة بارزة لذلك في الرسالة المذكورة. يكشف الأكويني عن مهارة تدعو إلى الإعجاب في المزج بين تلك العقائد وأُسس الحكمة وإبرار النصوص والسنن على وفق الآراء الفلسفية، في قضية اللطف ـ كما سنرى ـ مهارته تبدو في المصالحة بين نظرية الطبائع والإيمان باللطف الإلهي بصفته قدرة فوق طبيعية ومؤثرة في حياة البشر بحسب ما هو الاعتقاد التقليدي المسيحي.

كتبت الرسالة المذكورة في ستة فصول. الفصل الأول يبحث في الحاجة إلى اللطف الإلهي، في عشرة أبواب. الفصل الثاني يتألف من اربعة أبواب يدرس فيها ماهية اللطف. وفي الأبواب الخمسة من الفصل الثالث يتكلم على تقسيمات اللطف ويشرحها. في الفصل الرابع يتناول علة اللطف والشروط اللازمة لتحققه، وذلك في خمسة ابواب.. في الفصل الخامس يبحث في عشرة ابواب آثار اللطف.

وخصص الفصل الأخير إلى مباحث اللطف الجانبية، مثل استحقاق العباد للطف الإلهي، وفيما يلي نورد جوانب من هذه الرسالة القريبة من المسائل المطروحة في باب اللطف في الكلام الإسلامي:

الحاجة إلى لطف الله

سبق القول إن همّ الأكويني كان عقد المصالحة، في هذه المسألة، بين العقائد المسيحية والأُسس العقلية الأرسطية. لذلك يمكن القول إن موضوع هذه الرسالة الأصلي هو عرض تفسير جديد للعقائد المسيحية. في الفصل الأول يروي توما الاكويني نظريات ونصوصاً

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

عن آباء الكنيسة والكتاب المقدس في المواضيع المطروحة، ويقوم بردّها أو تأييدها بصيغة كلامية استدلالية، وفي النهاية يقوم عادة بالإدلاء بتفسير جديد للموضوع.

ثمة نكات عشر تدور حول موضوع الحاجة إلى لطف الله. الأُولى هي هل للطف دور في معرفة الإنسان الحقيقية، أم لا؟ أي إذا جرّد الإنسان من اللطف فلا يعود يفهم حقيقة مطلقاً؟.

في هذا الباب تنقل أقوال عن أوغسطين وشواهد من الكتاب المقدس. ثمة ثلاثة أدلة نقلية وشبه عقلية تذكر للاستدلال على أنه لا يمكن أن يعرف الإنسان حقيقة من دون اللطف، ودليل آخر على إمكان حصول ذلك. الاكويني، بالجمع بين هذه الآراء يطرح نظرية طبقاً للحكمة الأرسطية، فيفسح مكاناً للطف الإلهي كما يؤكد نظرية الطبائع. تتلخص نظرية الأكويني في ذلك بقوله إن المعرفة تتحقق عن طريق حركة عقلية، وكل حركة في العالم ضمن سلسلة العلل الفاعلية ترجع الى المحرك الأول. لذلك يفترض تدخل الله في كل حركة عقلية، أي بدون تدخل الله (وهو ما يمكن اعتباره لطف الله) لا يمكن أن تتيسر أية معرفة، كما أن جميع الصور التي تطرأ على المادة تطرأ من جانب واهب الصور، إذن فكل الكمالات ذوات الصور، إنما هي من الله، مع ذلك فإن لكل صورة خصائصها الخاصة التي تعرضها من دون حاجة إلى تدخل الله تدخلاً مباشراً إلّا من حيث الحركة، بناءً على ذلك، فالنفس، وهي صورة الهوية الآدمية، قادرة ـ بحسب خلقها ـ على إظهار آثار بصفتها معرفة لمجال محدود من الأُمور الطبيعية. لذلك لا يمكن القول بأن النفس، مستقلةً، ليست قادرة على التوصل إلى أية معرفة. طبعاً، معرفة الأُمور الخارجة عن مجال الطبيعة المحدود ليست في مقدور النفس بصورة مستقلة، إذ إن هذا النوع من المعرفة يتطلب عوناً خارجياً، كقوة الإيمان أو الوحي. واللطف بمثابة طاقة إضافية على سراج الحكمة وتجعل المعرفة ممكنة.

يبدو واضحاً من هذا أن دور النفس الناطقة الأرسطية في حصول المعرفة ـ وهو النتيجة المفروضة لهذه الصورة ـ يعترف به رسمياً. وفي الوقت نفسه، إن نصوص الكتاب المقدس وتصريحات آباء الكنيسة القائلة بعدم تحقق أية معرفة بدون معونة من الله ـ أي إنهم ينكرون قانون العلة والمعلول ـ يمكن إرجاعها الى حاجة حركة النفس إلى المحرك الأول.

السؤال الثاني هو هل يتدخل لطف الله في إرادة الإنسان وفعله الخير، أم لا؟ هنا أيضاً نجد آراءاً متضاربة وكل يدلي بأدلته، فمن جهة يقولون بما أن الإنسان مسلط على كل ما فيه من قوى، ومن البديهي أن إرادته تقع ضمن ذلك، لذلك فله أن يريد الخير أو الشر مستقلاً، وأن يظهر إرادته فيما يفعل. ثم إن الإنسان مسلط على ما يلائم مزاجه أكثر من تسلطه على ما ينفر منه. يقول الآباء الكنيسيون إن الذنب خلاف طبع الإنسان (وهذا ما يشرحه الأكويني فيما بعد شرحاً وافيا على وفق الأسس الأرسطية)، مع ذلك فالإنسان قادر على ارتكاب الذنوب بصورة مستقلة، فالأولى ان يكون قادراً على فعل الخير.

طبقاً للكتاب المقدس وللآباء المسيحيين، بمن فيهم أوغسطين ما من أحد يستطيع، بدون لطف الله، أن يريد فعل الخير ولا أن يفعله، كما سبق القول.

في رأي أوغسطين، إن الخطيئة الأولى قد أسرت الإنسان بحيث أن إرادته الحرة لا تستطيع التغلب على الاتجاه نحو الشر من دون تدخل لطف الله.

كلام الأكويني مفصل في هذا التعارض بين الإنسان وهو في فطرته الأُولى ـ أي قبل ارتكاب الإثم الجبلّي ـ والإنسان بعد الهبوط، ولكل حكمه الخاص به.

يرى الاكويني أن آدم أبا البشر، قبل ارتكاب

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

المعصية، كان قادراً على أن تكون له إرادة الخير في تلك المجموعة من الأُمور التي تقع في إطار مقتضيات الطبيعة، وهو في هذا لم يكن بحاجة إلى لطف الله، فمثلاً كان بإمكانه اكتساب الفضائل المكتسبة بإرادته المستقلة، ولكنه كان عاجزاً عن اكتساب ما تجاوز ذلك. مثلاً، لم يكن قادراً على اكتساب الفضائل اللّدنّية التي يهبها الله، لأنها أكبر من ذاته. إن الإنسان بعد ارتكاب الذنب يكون أشبه بالمريض الذي يصعب عليه جداً أن يستفيد من قواه الطبيعية من دون الاستعانة بالدواء. إن إنساناً كهذا يحتاج الى لطف الله إلى حدٍ ما، ولكن الأمر لا يبلغ حداً ـ حسب رأي أوغسطين ـ يعجز فيه عن إرادة فعل الخير مطلقاً، بل إن قيامه ببعض افعال الخير العادية، كالفلاحة والزراعة وعمارة الدنيا قد يكون ممكناً من دون الاستعانة بلطف الله. وبناء على ذلك لا يمكن القول بأن الإنسان محتاج الى اللطف الإلهي احتياجاً مطلقاً.

طبعاً، كما سبق القول، إن الإنسان في كلتا الحالتين محتاج الى لطف الله:

فمن حيث الحركة التي ترجع إلى المحرك الأول، يقول الأكويني إن الإنسان اليوم يشترك مع آدم أبي البشر في الأُمور الذاتية، لأن الجميع من نوع واحد، وكل ما كان متوقعاً من آدم متوقع من إنسان اليوم أيضاً. هنا تظهر مشكلة الإرادة الحرة وجمعها إلى الحاجة إلى لطف الله. جواب الاكويني يشمل المجالين، فهو يقول لا الإنسان الأول كان مستغنياً كلياً عن لطف الله، ولا الإنسان اليوم محتاج احتياجاً مطلقاً إلى لطف الله في فعل الخير. في الإجابة عن الدليل الأول، يوضحه في القسم الأول، وهو أن الإنسان قادر على أن لا يريد فعل الخير، مما يعني أن له أن يقرر القيام بعملٍ ما أو الخير، أي إنه يستطيع أن يتعقل الأمر. وبديهي أن العزم على تعقل الأمر يتطلب بذاته تعقل الأمر، أي إن كل ارادة مسبوقة بإرادة اخرى. وبالطبع لا يمكن لهذا أن يستمر إلى ما لا نهاية له، لأنه تسلسل، فلابد من وجود نقطة تقع فيه ارادة الإنسان الحرة تحت تأثير عامل خارجي، وهذه هي نقطة تدخّل اللطف الإلهي.

من جهة اخرى، إن إنسان اليوم يصاب بالضرر فقط عند ارتكابه ذنباً، ومثل المريض الذي لا يستطيع ـ لهذا العارض ـ ان يظهر اثراً من آثار طبعه، لذلك فالإنسان بعد ارتكابه الذنب يحتاج إلى الله مرتين؛ بينما الإنسان قبل الذنب يحتاج اليه مرة واحدة.

جواب الدليل الثاني يتم بتوضيح حقيقة الذنب. في نظر الأكويني، الخير هو كل ما كان مطابقاً للطبع، والذنب خروج عن هذا التطابق، إن الزعم بأن الإنسان قادر على ارتكاب الذنب مستقلاً، إذن فهو قادر على فعل الخير أيضاً، زعم مرفوض لأن المخلوق محتاج الى الخالق في وجوده وخيره وشره.

المسألة الرابعة تخص تدخل اللطف في قدرة الإنسان على الامتثال للشريعة..في هذا أيضاً يتكلم الأكويني بتفصيل يجمعه من طيات الكتاب المقدس، وهو يرى هذا الامتثال على نوعين: الامتثال بالمعنى المطلق في القيام بالفرائض الشرعية، والامتثال بمعنى القيام بالفرائض قربة إلى الله. بالمعنى الأول، كان آدم ـ قبل ارتكاب المعصية الجبلّية ـ يقوم بالواجبات الشرعية، وإلا فإن الإثم ما كان له معنى عنده، بعد ارتكاب الإثم، لا يستطيع الإنسان أن يقوم بأداء جميع الفرائض بدون لطف من الله، لأنه يكون ضعيفاً لارتكاب الذنب. وبالمعنى الثاني، لا يستطيع الإنسان على كل حال (قبل أن يأثم وبعده) أن يمتثل لأوامر الشريعة بدون لطف الله.

الظاهر أن دليل هذا الرأي نقلي صرف، وأن الأكويني، للتخلص من المشكلة العقلية، ابتدع هذا المعنى للدفاع عن قدرة الإنسان المستقلة على نوع من الامتثال.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

المسألة الخامسة تخص تدخل لطف الله في بلوغ الإنسان الى السعادة الخالدة الأُخروية. هنا أيضاً يقوم الأكويني بجمع نصوص متناقضة ظاهرياً من الكتاب المقدس على أساس حكمة ارسطو المدرسية. يقول لا يمكن للإنسان أن يصل الى السعادة الأبدية بدون تدخل لطف الله، لأن العلة لا يمكن أن تخلق معلولاً أشرف وأسمى منها. من الواضح إن السعادة الخالدة أشرف بكثير من جميع أفعال الخير التي تتحقق في حياة الإنسان، لذلك لا يمكن أن تكون معلولة لها.

المسألة السادسة تدور حول تدخل الله في تحرير الإنسان من الذنب الذي ارتكبه. يعتقد الأكويني أن الإنسان يصاب بثلاثة أنواع من الأذى بسبب الذنب:

الأول هو أنه يصبح ملوثاً بسبب الذنب، الثاني إصابة فطرته بجروح، وأخيراً يصبح مستحقاً للعقاب الإلهي. إن الإنفلات من هذه الآفات الثلاث لا يكون إلا بلطف من الله فقط. على أثر ارتكاب الذنب ينفتق شعار الهداية الإلهية الذي يلف الإنسان في الرحمة الربانية، ولا يمكن رتقه إلا بلطف من الله، إن النظام الفطري الإنساني من خلق الله أيضاً، فإذا اضطرب على أثر ارتكاب الإثم، لا يمكن أن يعود إلى حالته الأُولى إلا بالانجذاب الإلهي مرة أُخرى نحو مصدر الرحمة الأزلي الأول. إن غفران العقوبات الأُخروية أيضاً لا يكون إلا من جانب الله الذي أغضبه الذنب.

السؤال الأخير الذي ورد في هذا الفصل يتناول علاقة لطف الله بالتقوى والامتناع عن ارتكاب المعاصي، هل يستطيع الإنسان أن يتجنب المعصية من دون لطف الله؟

أوغسطين من جهة يقول مؤكداً إن الظن بأن الإنسان باتباع الشرع، ومن دون الحاجة إلى لطف الله، يستطيع أن ينال الخلاص، إنما هو خطأ فاحش لا يستحق السماع، لأن الشرع وحده لا يستطيع أن يخلص الإنسان. لا شك في أن تجنب الإثم لا يكون بدون الاستعانة بلطف الله. ومن جهة أُخرى، إذا فرضنا أن الإنسان لا يستطيع تجنب الذنب بدون لطف الله، فيلزم ان لا يكون الذنب ذنباً لأنه سيكون خارج اختيار الإنسان، وإذا ارتكب الذنب مع وجود لطف الله، يكون اللطف عبثاً ولغواً. لذلك لابد من الاعتراف بأن ترك الذنب لا يكون بدون الحاجة إلى لطف الله.

يقول الأكويني إن حقيقة الذنب هو الانحراف عن الفطرة، لذلك، ففيما يتعلق بالإنسان قبل ارتكاب الذنب، لابد من القول بأن تجنب الذنب لا يتطلب لطف الله، لأن السلوك، في الواقع، يكون بمقتضى الطبع، وبذلك تحل مشكلة كون الذنب ذنباً، أما الحاجة إلى اللطف في هذه الحالة فهي الضرر الذي يصيب طبيعة الإنسان وفطرته، بعد ارتكاب الإثم، ويقوّي فيه الرغبة في تكرار الذنب، إذ يقول رجال الكنيسة إنه اذا لم تقتلع الجريمة من أُصولها اقتلاعاً، يجر الإنسان الى ارتكاب المزيد من الإثم. لذلك فان ترميم الفطرة يحتاج الى اللطف، واجتناب جميع الآثام لا يتيسر بدون ذلك اللطف. مع ذلك، فإن الإنسان الملوث بالآثام لا يعني انه ارتكب جميع الآثام. إنه يستطيع أن يتجنب بعض الذنوب الكبيرة والصغيرة. هنا يبرز دور العادة التي تكلم عليها ارسطو في كتابه (الاخلاق).

الفصل الثاني يدور حول ماهية اللطف. سبق القول إنه منذ أيام أوغسطين حتى عصر التنوّر، كان تصور المسيحيين المؤمنين عن اللطف هو أنه قدرة إلهية مستقلة عن الإنسان وتؤثر فيه. ورأي الاكويني أن من واجبه أن يبين هذا التصور بياناً عقلياً، فكان لابد له من دراسة ماهية اللطف.

المسألتان الأُولى والثانية في هذا الفصل هما: هل اللطف الإلهي الذي يشمل شخصاً ما يضيف إليه شيئاً، وهل هذه الإضافة من مقولات الكيف؟ بدراسة

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

استعمالات لفظة Grace في المحاورات يتبين أن للطف ثلاثة معان، الأول: المحبة والعناية بالفرد. الثاني: الهدية أو الهبة التي تسبغ على الفرد من باب المحبة والعناية. الثالث: إحساس الفرد بالفرح عند تلقيه تلك الهبة. لفظة grateful المأخوذة من Grace وتعني أداء الشكر، تختص بالمعنى الثالث. من الواضح أن التحقق الخارجي للمعنى الخارجي ينجم عن المعنى الثاني الذي يتبع الأول.

هناك فرق بين لطف المخلوق على المخلوق، ولطف الخالق على المخلوق. ففي الحالة الأولى يكون فاعل اللطف جزءاً من العلة، لأن الخير الذي في متلقي اللطف يدرك أنه قد لطف به. ولكن في لطف الله بالمخلوق يكون اللطف نفسه علامة على ظهور الخير في الشخص الذي يتلقى اللطف، لأن الخير الأعلى ومنشأ كل خير هو الله تعالى، ولا يمكن أن نتصور وجود خير في مخلوق لا يوجد في الخالق ليصبح دافعاً إلى الخير. المثال البارز على ذلك هو التقدير الإلهي وقضاؤه، إذ بهما يتعين مصير الإنسان من قبل. من الواضح أن المصير الحسن ليس ثواباً على عمل الفرد، لأنه ليس مخلوقاً بعد.

لطف الخالق بالمخلوق على نوعين، أحدهما اللطف العام الذي يشمل جميع المخلوقات، وهذا اللطف هو تلك المحبة والرعاية الإلهية التي هي علة وجود الأشياء. هذا المعنى خارج عن البحث كله، والنوع الثاني هو اللطف الخاص، ويعني العناية التي يوليها للإنسان ويقدمه بموجبها إلى ما وراء حد الطبيعة، ويسبغ عليه من رداء جلاله. إن الله هو الخير الأعلى، ولطفه الخاص بالانسان هو انه يريد الخير الأعلى، ذاته المقدسة، للإنسان.

على هذا المعنى، فاللطف، حتى بمعناه الأول، عندما يسبغه الله على الإنسان، يضيف إليه شيئاً، لأنه يستتبع خيراً للإنسان. أمّا ما هي ماهية هذا الشيء فيمكن أن نتصور حالتين: الحركة التي يوجدها الله، بصفته المحرك الأول، في روح الإنسان فتحمله على الاتجاه نحو الخير، ثم الصور او الكيفيات التي تمهد الطريق أمام الروح المتحركة نحو الخير الأعلى، إن لطف الله في صورته الحركية ليس، بالطبع، من مقولات الكيف، لأن أرسطو يعتبر الحركة «فعل» المحرك في المتحرك. أما الصور أو الحالات التي تظهر في النفس وتسوقه نحو الخير، فيمكن، بالطبع، ان تكون من مقولة الكيف. بناء على ذلك يمكن أن نتصور اللطف حقيقة أحد طرفيها في ذات الله والطرف الآخر في روح المخلوق، وهو في ذات الله صورة جوهرية، وفي المخلوق صورة عرضية، لأن الخير المحض كامل في ذات الله، ولكن بما أن الإنسان يتخلق به فإنه لا يستطيع أن يستوعبه في ذاته بحد الكمال، فيكون على درجة أدنى[٨].

في البابين الاخيرين من هذا الفصل تطرح مباحث كلامية جزئية عن ماهية اللطف، وهل اللطف من حيث الماهية هو الفضيلة وأن موضوعه هو النفس ذاتها أو إحدى قواها. وبعد ذلك يشير الأكويني إلى مختلف آراء رجال الكنيسة ويخلص إلى القول بأن الفضيلة نوعان: الفضيلة المكتسبة والفضيلة الموهوبة. وبعد أن ينقل تعريف ارسطو الفضيلة على أنها ترتيب كل شيء بشكله الكامل، وأن «الكامل» يعني ما يكون بمقتضى الطبع، يستنتج أنه حيثما يمكن تصور وجود الفضيلة، لابد من افتراض وجود طبيعة سابقة عليها، لذلك، في الفضائل المكتسبة، التي تتحقق بعمل الإنسان، تلك الطبيعة المفروضة جزء من الإنسان، ولكن في الفضائل الموهوبة التي هي فوق طبيعة الإنسان، يفترض فيها نوع من المشاركة الإلهية. لذلك، فمثلما أن الفضائل المكتسبة هي غير العقل، كذلك الفضائل الموهوبة هي غير لطف الله.

من المفيد هنا الإشارة إلى أن اصطلاح الفضيلة Vittue في مجموعة الكلام الاخلاقي المسيحي يختلف

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

في معناه عن الاصطلاح الاسلامي قليلاً.

يستبان من مطاوي كلمات توما الاكويني أن تصوره للفضيلة هو أنها قوة تجر الإنسان إلى فعل الخير، وهي أشبه بالملكة، وهذا ناجم عن ثقل المعنى المستعمل في الأخلاق الاسلامية. بالطبع، في الاستعمالات الأخرى تكون الفضيلة من الصفات الممدوحة، كما ان اصطلاح الفضائل الثلاث، يعني الإيمان والرجاء والبر، يكون من هذا القبيل. وفي تصور «القوة» يتساءل الاكويني عما اذا كانت القوة التي تسمى لطف الله هي نفسها القوة التي تسمى الفضيلة أم لا، والظاهر إذا تغاضينا عن تصور «القوة» واعتبرنا الفضيلة هي تلك الصفات الممدوحة أو هي الشيء الحسن، فلا يبقى ما يدعو الى التساؤل.

وفيما يخص السؤال: هل موضوع اللطف هو النفس ذاتها أم واحدة من قواها، يقول الأكويني إن اتخاذ قرار بهذا الشأن مبني على الرأي الذي يتخذ في المسألة السابقة. إذا اعتبرنا اللطف، من حيث ماهيته، هو الفضيلة نفسها، فلا يكون موضوعه هو النفس ذاتها، بل قواها. وإذا اعتبرنا اللطف بالنسبة للفضيلة كنسبة العقل إليه، عندئذ يلزم أن يكون موضوعه هو النفس ذاتها. هنا يعرض الأكويني بياناً خطابياً مقبولاً عن الإيمان المسيحي باللطف، فيقول: «بناء على ذلك، لما كان اللطف سابقاً على الفضيلة، فموضوعه أيضاً يكون سابقاً على «قوى النفس». لذلك مثلما ان الإنسان يصبح مساهماً، بعون الإيمان ومن حيث قوته العاقلة، في المعرفة الإلهية، فكأن المعرفة التي يكتسبها الإنسان تكون نوعاً من إسهامه في بحر العلم الإلهي. ومن حيث قوة الإرادة يكون مشاركاً، بعون الأعمال الصالحة، في العشق الإلهي، ويقصد بالعمل الصالح الإنفاق وإعانة الآخرين charity التي تقدم للبشرية بدافع من الحب. هنا أيضاً يعتبر حب الإنسان لأخيه الإنسان جزءاً من الحب الإلهي الأزلي. كذلك الحال من حيث امتلاك الروح فإنه يعتبر ضرباً من المشاركة في ذات الله تعالى على وجه التشابه من خلال[٩] «عادة الخلق الخاص».

إن التعبير الأكثر فلسفة عن هذا الموضوع عند الأخذ بنظر الاعتبار نظريات الأكويني السابقة هو القول بأن اللطف يرجع في جذوره إلى الله، وهو في مرتبة الجوهر في ذات الله، فاذا تعلق بالإنسان يضعف خلوصه وشدته، ويتحول إلى الكيف، وموضوع هذا الكيف هو النفس ذاتها. وعندما يقع هذا الحدث، يصبح الإنسان موضع لطف الله وتكون نتيجته الخلق المجدد الذي لا نعرف حقيقته، ولكن أثره هو أن الإنسان الترابي، في الخلق المجدد هذا، يكون مساهماً في وجود الله تعالى من حيث اشتراك كليهما في التمتع باللطف، الذي هو في الإنسان محل للحلول، وفي الله هو ذاته عينها.

علة اللطف

الفصل الرابع من رسالة توما الاكويني يختص بدراسة علة اللطف، وفيه خمس مسائل. الأولى تتساءل عما إذا كانت العلة الفاعلية للطف تنحصر في الله وحده، أم أن للمخلوقات أن تفعل الخير أيضاً. تدل نصوص الكتاب المقدس في هذا الباب، في الظاهر، على أن الملائكة وشخص المسيح والعبادات يمكن أن تكون مفيض اللطف الإلهي. ولكن الأكويني، بالنظر لرأيه في أسس ماهية اللطف، يعتقد بأن فعل اللطف ينحصر في الله وحده، وأن هذه الظواهر يجب أن تؤوّل بشكلٍ ما، لأن اللطف، بالمعنى النوعي، هو المشاركة البشرية في الذات الإلهية، إذ إن حقيقته هو النسبة بين الله والبشر، ولا يمكن لبشر أن يعتبر فاعله، فالفاعل يجب دائماً أن يكون أقوى من المعلول، وما من شيء أقوى من الله تعالى.

عندما يعتبر الكتاب المقدس عيسى المسيح هو علة اللطف بالإنسان، لا ينظر إليه من جانبه البشري، بل من

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

حيث اتحاده بالله، فيكون علة اللطف. والعبادات أيضاً وسائل لتدخل الله في مصاير البشر ليس إلّا، وإن ما يقوم بالدور الأساس في تطهير الإنسان هو روح القدس مما يؤدي إلى استعمال هذه الوسيلة.

والكتاب المقدس يؤكد أيضاً أنه من دون روح القدس لا يمكن التقدم في ملكوت الله[١٠]، أما فيما يتعلق بالملائكة، الذين يعتقد الآباء المسيحيون بأنهم قادرون على تطهير الإنسان والملائكة الأدنى، يقول الأكويني إن هذا التطهير لا يعني التدخل التكويني لفرض الخلاص، بل يعني أنهم يقومون بتبليغ الأوامر اللازمة. وبناء على ذلك، التدخل بقصد خلاص الإنسان لا يكون إلا من جانب الله.

المسألة الثانية تتساءل هل يشترط في شمول لطف الله استعداد الفرد عن طريق الأعمال الإرادية أم لا؟ يقول الأكويني هناك نوعان من اللطف، فمرة يكون المقصود من اللطف هو الهبة الإلهية التي تعطى للفرد، ومرة يكون عوناً وتوفيقاً من الله في صورة تحريك إرادة الإنسان لعمل الخير. بالمعنى الأول ينبغي أن يكون شمول اللطف مسبوقاً بنوع من الاستعداد في الإنسان والذي يتحقق بالقيام بأفعال إرادية خاصة، وذلك لأن «الصورة لا يمكن أن توجد إلا في المادة المستعدة لذلك»[١١]. أما اللطف بالمعنى الثاني فلا يكون مسبوقاً بأي فعل إرادي للإنسان، بل يكون سابقاً له.

تلقى هذا الرأي بعض الانتقادات، أهمها أن الفاعل القادر المطلق يستطيع أن يخلق الصورة من دون مادة، وإلّا فلن يكون قادراً مطلقاً. إذن فإن تحقق اللطف من دون استعداد سابق ممكن.

جواب الأكويني عن هذا الاعتراض هو أن القادر المطلق ليس بحاجة إلى صورة لمادة أوجدها فاعل آخر، ولكن ليس ثمة ما يمنع من أن خلق صورةٍ ما يكون منوطاً بخلق مادة سابقة مناسبة لها.

بعد أن اعترفنا أن الله هو العلة الوحيدة لفاعلية اللطف، واعتبرنا تحقق نوع من اللطف منوطاً بوجود الاستعداد والقابلية في المتلقي بواسطة أفعال إرادية خاصة، يتبادر إلى الذهن هذا السؤال: هل يصبح اللطف لازماً بوجود الاستعداد أم لا؟ جواب الأكويني يأتي في الباب الثالث.

بحسب الأُسس التي تقررت في البحث السابق، الاستعداد للطف يكون عن طريق أفعال إرادية خاصة هي نفسها تحتاج إلى لطف آخر، أي تحريك إرادة فعل الخير، لذلك يمكن تقويم هذا الاستعداد من وجهين: الأول هو أن إرادة الإنسانية تتعلق بفعلٍ ما، وأن ذلك الفعل متحقق، وأن الاستعداد لتلقي لطف الله موجود، فلا ضرورة لتعلق المزيد من لطف الله بالإنسان، لأننا قلنا من قبل إن علة فاعلية اللطف هو الله وحده، وما من مخلوق يقدر أن يجبره على فعلٍ ما. أما من حيث الوجه الآخر القائل بأن هذا الاستعداد هو معلول للطف الله وفعل الله هو علة تحققه، فلا مانع من أن يكون هذا الفعل علة لفعل آخر، وبذلك لا تكون هناك ضرورة لإجبار الله. هنا تضيف أن إرادة الله لا تتخلف عن مراده. إذا شاءت ارادة الله أن يخلّص الإنسان، وتم فعل الإنسان الاختياري بلطف الله، يصبح المراد، وهو اللطف الآخر، ضرورياً، ومن الواضح أن هذه الضرورة ليست مفروضة على الله من الخارج.

القسمان الآخران من هذا الفصل يتناولان أبحاثاً جانبية: هل اللطف الذي يسبغ على فرد يمكن أن يكون أكثر مما على الفرد الآخر، أم لا؟ وهل الشخص يستطيع أن يدرك أنه مشمول باللطف، أم لا؟ بالنظر إلى أن هذه الأبحاث ليست حيوية في هذا الباب فقد أهملناها.

الفصل الخامس يتناول إصلاح المذنبين تحت عنوان آثار اللطف. في هذا الفصل يسعى القديس توما الأكويني إلى إبراز فلسفي لآراء أبداها رجال الكنيسة في هذا

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

المجال، وبعض النصوص الواردة في الكتاب المقدس.

ومن بين المفاهيم الرئيسة في الدين المسيحي هو مفهوم «إصلاح المذنبين» الذي يعبّر عنه الأكويني بلفظة justification بمعنى ابراء الذمة والتحرر من تبعات الذنب، وهو يراها مشتقة من الجذر justice بمعنى العدالة، أي وضع الشيء في موضعه. إن قوله عن أثر اللطف أنه يمحو الذنوب يجري هكذا: العدل في باطن الإنسان يقتضي أن تنتظم قواه بحيث إن قواه الدنيا تكون تابعه للقوى العليا، وهذه تكون تابعة لله. الذنب يعني الاعتداء على هذا النظام، وإصلاح المذنب يكون بإعادة هذا النظام إلى نصابه. لذلك فإن ثمرة لطف الله بالمذنب هو تحريره من قيود آثار الذنب، وإعادة العدل في عالم وجودهم مرة أُخرى إلى مكانه.

إن الله رحيم بالناس رؤوف، وهي رحمة دائمة. أما المتقبل فيمكن أن تحجب عنه رحمة الله. ازالة هذا الحجاب وشموله برحمة الله مرة أُخرى تستوجب أن يشمل لطف الله حال المذنب فيغفر له. وشمول اللطف يعتمد على أن يحرك الله إرادة الإنسان الحرة نحو ترك الإثم وجبره، وذلك لأن كل حركة يعطيها الله لأي شيء ـبصفته المحركـ، تكون مطابقة لمقتضى فطرة ذلك الشيء وطبعه، ومقتضى طبع الإنسان هو العمل الإرادي. لذلك فاللطف في التكفير عن الذنوب يتم أثره عن طريق عمل الإنسان الارادي، والخطوة الأولى في هذا العمل الارادي هي التوجه إلى الله، وهو الذي يطلق عليه إصطلاح الإيمان. والعزم على ترك ارتكاب الذنوب هو الشرط الآخر للانتقال من حالة الإثم والتلوث إلى حالة الصلاح.

توما الأكويني يقرر اربع مراحل لإصلاح الذنوب، ولا يعتبر فيها التقدم والتأخير الزمني، ولكنها تختلف من حيث المرتبة. الأُولى نفخ اللطف، الثانية حركة إرادة الإنسان الحرّة نحو الله، الثالثة العزم على ترك ارتكاب الذنب، وأخيراً غفران الله الذنوب. السبب في عدم اعتبار التوالي الزماني لهذه المراحل هو أنه يرى عمل الإصلاح دفعياً دون زمن، وهو يسوّغ ذلك بقوله إن سبب التحديد الزمني لكل حدث هو ضعف الفاعل ومقاومة المادة، وهما منتفيان فيما يخص إصلاح المذنبين.

في القسم الأخير من هذا الفصل يعمد توما الاكويني إلى القول بأن إصلاح المذنبين أعظم عمل يقوم به الله بشكل معجز. أوغسطين سبق أن قال في موضعٍ ما إن إصلاح المذنبين أعظم من خلق الملائكة العادلين. مقولة الأكويني، من حيث اختلاف المعاني، أكبر من ذلك. يقول يقاس عظم الفعل بالفعل نفسه أحياناً، واحياناً بالنتيجة. في المقارنة الأولى العالم أعظم من إصلاح المذنبين، ولكن في المقارنة الثانية العكس هو الصحيح، لأن ثمرة الإصلاح هي أن يصبح الفرد شريكاً في جلال الله وجماله وهو أشرف من العوالم كلها. وله تصريح مشابه عن إعجاز هذا العمل، إذ يقول إن إعجاز عملٍ ما قد يتعلق بقدرة الله اللامتناهية، وبهذا المعنى يكون إصلاح المذنبين عملاً معجزاً، كما سبق قوله. وأحياناً يكون انطباع صورة في مادة لا تستطيع تحمل ذلك في الحالات الاعتيادية، مثل إحياء الميت أي نفخ الروح في جسد ليس له، عادة، الاستعداد لذلك. إصلاح المذنبين بهذا المعنى ليس إعجازاً، لأن صورة الإنسان الإلهية فطرة إنسان خلق بصورة الله.

اللطف والاستحقاق

من المسائل المرتبطة ببحث اللطف الإلهي استحقاق الإنسان. في الفصل الأخير من رسالة اللطف يتناول الاكويني هذه المسألة. السؤال الأول هو هل يمكن القول بأن الإنسان يستحق شيئاً من الله؟

يوضح الأكويني ذلك بقوله إن فكرة الاستحقاق بمعناها الحقيقي يمكن تصورها بشأن شيئين من طراز واحد. إذا وصل خير من أحد إلى شخص آخر من

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

طرازه، يمكن أن نتصوره يستحق شيئاً لقاء ذلك، لذلك فلا يمكن تصور وجود مثل هذا الاستحقاق بين الله والإنسان. مع ذلك، هناك نوع آخر من الاستحقاق في العلاقة بين المولى والعبد أو بين الوالد وولده، يمكن تصوره. بين الله والإنسان أيضاً يمكن أن يكون مثل هذا الاستحقاق، أي إن المولى نفسه قد يعين استحقاقاً للعبد ازاء قيامه بعمل يقرره له. في هذه الحالة، كل ما ينشأ من العبد هو في الواقع من المولى، وفي الوقت نفسه يتحقق الشرط اللازم للاستحقاق المتفق عليه.

بهذا الشرح ينحل تلقائياً عدد من الاعتراضات الموجهة إلى فكرة الاستحقاق هذه، مثل: كيف يكون الإنسان مستحقاً للجزاء من الله لخير يعود على نفسه، لا على الله؟ أو كيف يكون فعل خير الإنسان، الذي تم بحول الله وقوته، مستحقاً للثواب؟ أو أن الاستحقاق يستوجب وجود نوع من الدين على الطرف الآخر، ولكن لما لم يكن الله مديناً لأحد من عباده بشيء، لذلك ما من أحد يكون مستحقاً لشيء من الله، أو أن أي عمل خير يقوم به الإنسان هو واجبه تجاه الله، والمرء الذي يؤدي واجبه لا يستحق الأُجرة والثواب.

للأكويني جواب خاص عن مسألة الدين. يقول: إذا حصل استحقاق تعاقدي للعبد، لا يحصل في الطرف الآخر دين على الله للإنسان، وإنما يستبين دين الله لله وهو الناجم عن وعد الله وعهده. بطرح الاستحقاق التعاقدي تنحل المشكلات المذكورة آنفاً.

مسألة الأكويني الأُخرى هي القول بأنه من دون لطف الله لا يستحق أحد الخلاص الأبدي والحياة الخالدة، لذلك، فالحياة الأبدية تتطلب اللطف الإلهي. وهو يوضح ذلك بقوله إن الإنسان يمكن تقويمه في حالتين، حالة انعدام الذنب، مثل آدم أبي البشر في الجنة قبل الهبوط، وحالة الإنسان الملوث بالإثم، مثل أبناء آدم في حياتهم على الأرض. في الحالة الأولى، عدم استحقاق الإنسان للحياة الأبدية يعود إلى أن نظام العلة والمعلول في الوجود، وهو سنة إلهية، يوجب أن لا يكون لأي معلول وجود أشرف وأعلىٰ وأعظم من علته، والحياة الأبدية أشرف أعمال الإنسان قاطبة، فلا يمكن أن تكون أجرة ومعلولة له في الحالة الثانية. وهناك مانع آخر يضاف إلى ذلك، وهو أوزار الذنوب ووبالها مما يوجب غضب الله وإبعادهم عن دار كرامته. لذلك لا استحقاق للحياة الأُخروية من دون لطف الله الذي يؤلف الجزء الأخير من العلة في الحالة الأُولى، ويوجب المصالحة مع الله في الحالة الثانية.

هنا لابد من الإشارة إلى النكتة التالية: يستنتج من بين طيات الكلمات، وأحياناً من تصريحات رجال الكنيسة، أن السعداء هم الذين تكون لهم حياة خالدة. يروى عن القديس بولس أنه قال: «أُجرة المذنب الموت»[١٢]. فإذا أخذنا بنظر الاعتبار قوله عن الحياة الخالدة في عيسى المسيح، يمكن أن نستنتج انه يرى الخلاص حياة والشقاء موتاً، على الرغم من صعوبة إصدار حكم قطعي بأنه كان ينكر الخلود في النار.

في بحث الاستحقاق يعتقد الأكويني أنه إذا نال شخص لطف الله، لا من حيث العمل ذاته الذي ينجزه، بل من حيث بذل الجهد في طاعة الله، وبموجب الاتفاق الذي سبق ذكره، يصبح جديراً بنوع من الاستحقاق يمنحه الله له بقدرته ورحمته اللامتناهية. عظمة المثوبة الإلهية من عظمة لطفه.

٣ ـ اللطف في كلام الشيعة

متكلمو الشيعة، بالاتكاء على قاعدة اللطف، تناولوا عدداً من المسائل بالدرس والتحليل، منها مسألة وجوب التكليف الابتدائي، وجوب البعث، ضرورة عصمة النبي والإمام، وجوب نصب امام وضرورة الثواب والعقاب. بعض المتكلمين وسعوا من دائرة شمول قاعدة اللطف بحيث إنهم أجازوا تطبيقها في مواضع من الفقه أيضاً.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

هنالك تقريرات مختلفة عن هذه القاعدة وبراهين لإثباتها. فيما يلي نقوم بدراسة تقريرين استدلاليين مهمين، هما تقرير المرحوم الطبرسي في كتابه «كفاية الموحدين»، وتقرير المرحوم العلامة في «شرح التجريد».

يبدأ المرحوم الطبرسي تقريره عن اللطف بذكر معان ثلاثة لهذا المجال وتنقيح محل بحث المتكلمين، فيورد ثلاثة أدلة عقلية في إثباته، ويحاول حل الإشكالات الموجهة إلى القاعدة. المعنى الأول للطف هو مطلق الرأفة والرفق والمداراة والإحسان والشفقة، وهي ليست واجبة على الله، ولم يدّع أحد وجوبها. المعنى الثاني هو أداء حق كل مستحق، بيان مصالح العباد ومفاسدهم وجميع الأمور التي تخص صلاح حياة الناس في الدنيا والآخرة. اللطف، بهذا المعنى، واجب على الله، ولا يشك أحد في ذلك. من ثمار هذا اللطف بيان التكليف، وإنزال الكتب، وإرسال الأنبياء ونصب الولي. المعنى الثالث، وهو موضع بحث المتكلمين، هو «كل ما له تأثير في إبعاد الناس عن المعصية وتقريبهم إلى الطاعة، ولكنه لا دخل له في قدرتهم على اداء التكاليف، كما أنه لا يجردهم من حق الاختيار». يرى المرحوم الطبرسي أن محل خلاف المتكلمين حول هذا المعنى هو وجوب اللطف أو عدم وجوبه. هناك ثلاثة شروط في تعريف اللطف، كل منها احتراز من المعنى الخاص، الشرط الأول هو أن يكون أصل التكليف وأحكامه محرزاً ومعلوماً، إذ إن الكلام على التقريب إلى الطاعة لا يكون إلّا بعد ذلك الإحراز. لذلك فإن بيان الله التكليف ليس لطفاً بهذا المعنى، لأنه لا يقرّب إلى الطاعة، بل هو نتيجة للطاعة. الشرط الثاني هو أن التقريب أو الإبعاد ينبغي ألّا يكون الى درجة تؤدي إلى الانفصال أو الترك، ولا ان يسلبه حق الاختيار، إذ في هذه الحالة لن تكون طاعته طاعة. الشرط الثالث هو أن لا يكون لفعل اللطف أي تدخل في قدرة المكلف على القيام بعمل معين أو تركه (مصداق التكليف)، لأنه إذا فقد المكلف قدرته بدون اللطف، يكون اللطف ـ عندئذ ـ من مقدمات الاختيار والتكليف بدونه قبيح»[١٣].

يتضح من بيان الطبرسي هذا أن اللطف في نظره نوع من تدخل الله في أعمال الإنسان اليومية بهدف ترغيبه في عمل الخير وابعاده عن ارتكاب المعاصي، مع اعتبار حرية الإنسان الكاملة في الاختيار. هذا التدخل يعتبر من جنس الأفعال التكوينية الإلهية، ولا علاقة له بالتشريع وبيان التكليف وإرسال الرسل. بالطبع يعتبر التشريع الإلّهي من مقولة اللطف بالمعنى الثاني، وهو خارج عن مجال الخلاف في علم الكلام.

لإثبات وجوب اللطف على الله بهذا المعنى، يورد الطبرسي ثلاثة أدلة، أحدها يقوم على الحسن والقبح العقليين، ولكن الدليل الآخر ليس كذلك، وهو ـ حسب قوله ـ ملزم للأشاعرة أيضاً.

الدليل الأول: وهو إن غرض الله من التكليف هو طاعة العباد، يمكن أن نتصور حالة يكون فيها الله قد قرر تكليفاً ويكون للعبد الخيار في فعله أو تركه، ولكن إذا لم يفعل الله شيئاً يرغّب العبد بأداء التكليف، عندئذ يكون قد عصى. في هذه الفرضية إذا لم يفعل الله ذلك يكون قد نقض غرضه. لقد ضربوا مثلاً لذلك بحالة امرئ يدعو شخصاً إلى الطعام، ولكن الضيف ـ بالرغم من قدرته على الرفض أو القبول ـ فإنه اذا لم يلحظ شيئاً من الملاطفة من جانب الداعي فإنه يرفض الدعوة. إن هذا المضيف إذا لم يبد البشاشة في وجه الضيف يكون قد نقض غرضه.

إن كبرى هذا البرهان بديهي. نقض الغرض أمر قبيح، والله لا يفعل القبيح.

الدليل الثاني: كل فعل له ما يدعو إليه، ويخلو مما يدعو إلى تركه، ويكون الفاعل قادراً عليه، يصبح وقوعه

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

ضرورياً، وإلا كان تخلف العلة عن المعلول.

بعبارة أُخرى، إذا كان الفاعل المختار قادراً على القيام بعملٍ ما، ويكون له الدافع إلى القيام به، ولا يكون ثمة ما يمنعه، فإنه يقوم بذلك الفعل بالضرورة، لأن مبادئ الفعل تامة. واللطف بالمعنى المقصود في البحث فعل من هذا القبيل، فالله قادر عليه، وله الدافع إلى فعله، ولا وجود لأي صارف عنه، إذن صدور هذا الفعل من الله ضروري. من الملاحظ في هذا البرهان استحالة تخلف المعلول عن العلة، ومحط البرهان السابق هو استحالة قيام الله بعمل قبيح، لذلك يرى المرحوم الطبرسي أن هذا البرهان ملزم للأشاعرة.

الدليل الثالث: بما أن الله كمال مطلق، فإن فعله أتم الأفعال وأصلحها، ومن المستحيل أن يصدر عنه فعل لا يكون على أتمه وأصلحه، من جهة أخرى، تقريب العباد من الطاعة وإبعادهم عن المعصية أصلح لحالهم، إذن هذا الفعل واجب على الله.

ضمن الإشارة إلى أن الدليلين الأخيرين يكفيان لاثبات اللطف بالمعنى الثاني، يستشهد الطبرسي بآيات من القرآن تشير إلى الغرض من الخلق وضرورة البعث، ثم يشرح الاعتراضات الموجهة إلى قاعدة اللطف، ويذكر إجابات القدامى وينقدها ويجيب عنها.

الاعتراض الأول: إذا كان الله لطيفاً بالعباد، فعليه أن لا يخلق كفاراً مصابين بالأمراض والشقاء، او أن يميتهم قبل بلوغهم سن التكليف، لأنهم لكفرهم سيكونون مخلدين في النار، وهم في الدنيا مبتلون بشتى الأمراض. ولكن الله لا يفعل ذلك، فهو إذن ليس لطيفاً بالعباد.

الاعتراض الثاني: تكليف العباد لطف. والله يمنع هذا اللطف عن عباده لبضع سنين، مع انه لا فرق بين صبي مكلف وصبي على وشك التكليف.

الاعتراض الثالث: بعثة خاتم المرسلين لطف بحق جميع العباد، مع ذلك فقد منع الله هذا اللطف لبضعة عقود (حتى سن الأربعين) عن العباد.

إن الجواب الذي ينقل عن المتكلمين بصورة إجمالية هو أن اللطف يختص بما قبل إتمام الحجة، بينما الاعتراضات المذكورة تخص ما بعد إتمام الحجة، لذلك فإنها خارجة عن موضوع اللطف. بعد ذلك يقول المرحوم الطبرسي إن هذا الجواب غير مقبول، لأن التعريف الذي أورده للطف يعود إلى ما بعد إتمام الحجة.

كلام الطبرسي هنا لا يخلو من الغموض، إذ ليس واضحاً كيف حل جواب المتكلمين الاعتراض الأول. إذا حملنا هذا الجواب على أن اللطف هو إرسال الرسل وتكليف العباد فإنه يستوجب الاعتراض، وإذا قلنا بسبق اللطف على إتمام الحجة وباعتبار التكليف والتشريع إتماماً للحجة على العباد، عندئذ يبقى الاعتراضان الثاني والثالث بدون جواب، وإن تمت الإجابة عن الاعتراض الأول، بالقول بأن اللطف قد شمل حاله، وتقرر التكليف والتشريع، ولكن إرادته السوء جعلت مصيره النار. على كل حال، إذا اعتبرنا اللطف وفق التعريف الثالث، لا يمكن رد الاعتراض الأول بالجواب المذكور للسبب الذي قال المرحوم الطبرسي بأن الاعتراضين الثاني والثالث لا يكون لهما محل من الإعراب، لأن هذا اللطف يكون مسبوقاً بإمكان الطاعة، وذاك يكون مسبوقاً بالتكليف. لذلك فتأخير التكليف لا يعني حجب هذا اللطف. الحل الذي يختاره المرحوم الطبرسي هو إننا إذا اعتبرنا وجوب اللطف من باب امتناع نقض الغرض، عندئذ يكون متفرعاً من وجوب التكليف، ووجوب التكليف متفرع من حسن التكليف، إذن حسن اللطف متفرع من حسن التكليف. حيثما أحرز حسن التكليف، يصبح الحكم بوجوب اللطف ممكناً. ولكن حسن التكليف ليس حسناً ذاتياً، بل هو تجاهل الثمار والنتائج.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

بناء على ذلك، لا يحرز حسن التكليف إلّا علام الغيوب. إذن، حيثما منع اللطف لابد أن يكون بسبب فقدان الحسن هناك، أو لاشتماله على مفسدة.

إذا اعتبرنا اللطف من باب امتناع تخلف المعلول عن العلة، عندئذ يكون متفرعاً عن وجود الداعي في الله، وعدم وجود الصارف. إن العلم بوجود الداعي وفقدان الصارف، في حالات عينية، لا يتأتى للإنسان. إذن لا يمكن أبداً القول بأن اللطف كان واجباً ولكنه منع، إذ حيثما لوحظ فقدان اللطف، أمكن إبراره بفقدان الداعي او بوجود الصارف.

مرجع هذا الحل ـ عموماً ـ هو أن قاعدة اللطف، كقضية شرطية، تقول اذا قام الله بفعل يقرب العبد إلى الطاعة ويبعده عن المعصية، وجب على الله أن يقوم بذلك الفعل. لا يمكن لهذه القضية أن تعين، بأي مصداق كان، إن كان هذا الفعل الخاص لطفاً أم لا. إذن فحيثما قيل إن اللطف قد منع، يمكن الرد بأن الفعل الذي منع لم يكن لطفاً. بناء على ذلك لا تستطيع الاعتراضات المصداقية أن تخدش قاعدة اللطف.

يبدو أن هذا الحل يتطلب بعض النقاش، ويحسن قبل ذلك أن نبحث نقطة معينة. طبعاً صحيح أن أية قضية شرطية لا تنظر إلى وجودها وعدم مقدمها.

إن القضية التي تقول: «إذا كان عمل ما مقرباً للعبد من الطاعة وجب القيام به على الله» لا يمكن ان تبين بمفردها أن الفعل الفلاني يقرب العبد من الطاعة، كما ينبغي ان نلاحظ ان القضية لا تستطيع أيضاً أن تثبت أن الفعل الفلاني لا يقرب العبد من الله. إن قيام فعل خاص بالتقريب من خصوصياته الواقعية يجب نفيه أو إثباته عن طريق الفعل نفسه.

فيما يتعلق بالاعتراضات المصداقية على قاعدة اللطف، يضيف المعترض قضية صغرى على القضية الشرطية المذكورة، وعندئذ بنقض التالي يسعى إلى إثبات نقض الملازمة. مثلاً، الفعل (الف) مقرب الى الطاعة. وكل فعل يقرب الى إطاعة أوامر الله واجب، إذن (ألف) واجب على الله، ولكن الفعل (ألف) غير واجب على الله (بحذف القياس الوسطي والاستعانة بالحد الوسط «الله لم يفعل»)، إذن فالملازمة باطلة. أي إن المعترض يريد أن يبين صدق قضية وكذب تاليها بالاستعانة بقضية أُخرى.

والآن إذا أردنا بدلاً من إبطال الصغرى بصورة مستقلة، إبطالها بالاستناد إلى هذه القضية الشرطية نفسها ـ وهي طريقة الطبرسي في حلها ـ نواجه المصادرة. إذا جاز هذا الأسلوب، فيمكن إنقاذ كل قضية شرطية كاذبة أُبطلت بنقض واحد، وإبطال النقض بالاستعانة بالشرطية، هذا الحل أشبه بما لو أننا أردنا إبطال الشرطية «إذا كان شخص ما عالماً فهو فيلسوف» نقول: «داروين عالم ولكنه ليس فيلسوفاً، إذن هذه الشرطية كاذبة»، ثم لرد هذا النقض نقول «بما أن داروين ليس فيلسوفاً فهو ليس عالماً». من البديهي إن مثل هذا الجواب لا يمكن إلا أن يكون مصادرة.

في البحث الكلامي حول النبوة العامة وعصمة الأنبياء والأئمة(ع)، يتمسك الطبرسي بقاعدة اللطف. إن تقرير إثبات النبوة العامة يقوم على قبح نقض الغرض، لأن غرض الله من خلق الإنسان هو الوصول الى الكمال الأُخروي، وهذا الكمال لا يتحقق إلا بإرسال الأنبياء والرسل، وهو أتم وجوه تقريب العبد من الطاعة وإبعاده عن المعصية. فإذا لم يبعث الله الأنبياء لا يتم تحقيق غرضه، كذلك يثبتون العصمة بتقرير أن الغرض من إرسال الأنبياء هو ارشاد الناس، والغرض من إرشاد الناس هو طاعتهم. إذا جعل الله النبي والإمام معصومين، إنقاد الناس براحة بال وانفتاح صدر، إذن إسباغ المعصومية على الأنبياء يقرب العباد إلى الطاعة، إذن هو واجب على الله. في ذيل هذا البرهان يقول

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

الطبرسي: إن هذا هو أتم دليل لأنه يشمل عصمة الإمام قبل الامامة وبعدها.

إن نظرة في التقرير الأول تكشف لنا أن هذا البرهان لا ينسجم تماماً مع الأساس الذي قال به المرحوم الطبرسي في بداية البحث، لأنه كان في مجال تعريف البحث قد وضع ثلاثة شروط لقاعدة اللطف، منها إحراز التكليف الشرعي، وتجري قاعدة اللطف بعد هذا الإحراز. لذلك فلا يمكن اعتبارها جارية في النبوة، لأن التكليف السابق عليه لم يحرز. بعبارة أخرى، لا يمكن تصور الطاعة قبل البعثة كي نقول إن البعثة تقرب العبد منها. ثانياً بما أن غرض الوصول إلى الكمال يقع في الحد الأوسط من هذا البرهان، وأن المقصود بهذا الكمال هو الكمال الأخروي (حسب قول الطبرسي نفسه)، فان هذا اللطف يتدخل في التمكين، إذ بدون ذلك لا يستطيع العبد أن يتعرف طريق الطاعة، فلا يكون متمكناً منها.

الظاهر أنه يقصد المعنى الثاني للطف في هذا المقام، وأنه قد تساهل في تسميته بقاعدة اللطف. في هذه الحالة يكون هذا البرهان تقريراً آخر من البرهان الأول القائم على عدل الله. على كل حال، الاستدلال بقاعدة اللطف ـ إذا كانت القاعدة نفسها تامة ـ على العصمة، وفق التقرير الذي قاله، لا إشكال فيه على الظاهر.

تقرير الخواجة والعلامة عن قاعدة اللطف يختلف عن بيان المرحوم الطبرسي، هذا التقرير يدرس اللطف من منظور عام بحيث إنه قسمه إلى ثلاثة أقسام: اللطف الذي مصداقه فعل من أفعال الله. اللطف الذي مصداقه فعل المكلف، وذلك الذي مصداقه فعل شخص ثالث. بناء على ذلك يبدو كأنه يصف ماهية كلية تتحقق على ثلاث صور خارجية.

المرحوم العلامة يعرّف اللطف على أنه «كل ما كان وجوده يقرب المكلف من الطاعة ويبعده عن المعصية بشرط أن لا يكون له أي تدخل في قدرة المكلف وان لا يضطره اضطراراً»[١٤]. إلى هنا هذا التعريف يشبه تعريف المرحوم الطبرسي، ولكن بدلاً من الشروط الثلاثة التي ذكرت من قبل، يبين العلامة اختلافاً بين اللطف والتكليف من حيث الطاعة والعصيان، وذلك بأن اللطف، وجوداً وعدماً، لا دخل له في الطاعة والعصيان، ولكن التكليف شرط ضروري في تحقق الطاعة والعصيان، إذ في حالة عدم التكليف لا يكون للعصيان معنى.

بعد بيان تعريف اللطف، يشرح برهان المرحوم الخواجة على اساس تقرير قائم على استحالة نقض الغرض، فيقول: غرض الله من إقرار التكليف الشرعي هو امتثال العباد. فاذا علم الشارع المقدس أنهم لا يمتثلون بدون اللطف، ومع ذلك يمنعه عنهم، فإنه يكون قد نقض غرضه، تماماً مثل المضيف الذي يمتنع عن اظهار اللطف والمحبة لضيفه مع علمه بأنه في هذه الحالة لن يقبل دعوته. هذا البرهان ـ والظاهر أنه في قبال الأشعرية ـ يفترض وجود غرض خاص لله نستطيع اكتشافه، ويمد سريان استحالة نقض الغرض ـ وهو قبح عقلي ـ إلى الله.

اعتراضات الأشاعرة الثلاثة المقررة على اللطف هي:

١ ـ هل اللطف، بهذا المعنى المذكور، يشمل الكفار أيضاً أم لا؟ إذا كان يشملهم فلماذا يبقون على كفرهم؟ إذن يظهر أن لطف الله ليس لطفاً، أي إن الله لم يقم بعمل يقربهم إلى طاعته، وإلّا يستحيل ان يقربهم ويمتنعون، فاذا قلنا إن اللطف لا يشمل الكافر، يخطر السؤال التالي: هل يعجز الله عن أن يلطف بالكافرين أم لا؟ الفرض الأول يقتضي نقض وجوب الوجود من جميع الجهات، والفرض الثاني يستلزم البخل، وكلاهما يستحيلان على الله. بناء على ذلك يتبين أن ليس على الله أي عمل واجب

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

ولا أي عمل قبيح، بل له أن يهدي من يشاء أو أن يتركه في ضلال.

في رد هذا الإشكال قيل إن اللطف ليس علة تامة للقرب إلى الله، بل هو جزء من العلة، والجزء الآخر من العلة هو الإرادة الحرة للفرد الذي يقع اللطف عليه. والكفار هم بإرادتهم ينأون عن التقرب إلى الله.

٢ ـ على فرض القبول بأن الله، كالإنسان، له أغراض، والقبول بأن قيام الله بنقض الغرض قبيح، ولذلك فهو مستحيل، مع ذلك فإن هاتين المقدمتين لا تكفيان في إثبات وجوب اللطف، لأن كل عمل يكون مصداقاً للطف، حتى اذا لوحظت المصلحة في ذلك الفعل، فثمة احتمال وجود مفسدة خفية فيه، فلا يمكن الحكم بأن القيام بذلك الفعل واجب على الله وتركه قبيح، إذ يمكن أن يكون مستنداً إلى ذلك القبح وتلك المفسدة.

قيل في جواب هذا الإشكال إنه لا معنى للقبح والمفسدة الخفية إذا لم يستطع الإنسان إدراكهما، لأن الله يكلف الإنسان بتجنب كل قبح ومفسدة، فلا بد أن تكون جميع القبائح والمفاسد معروفة لديه عن طريق العقل أو الشريعة، لذلك فتصور وجود قبائح ومفاسد تخص عمل الإنسان، ويخفيها الله، أمر غير ممكن، من الواضح إننا في هذا البيان لا نستنتج عدم وجود المفسدة من الجهل بها، حتى يقال إن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، بل يستنتج عن طريق التلازم بين التكليف والعلم بما يتعلق به، فيعلم جميع المفاسد والقبائح وفقدان كل قبح في متعلق التكليف.

تعبير المرحوم العلامة في شرح كلام الخواجة (ره) يفيد هذا الأمر بصورة مختصرة، كما سبق، على الرغم من بقاء بعض التحفظ على الأمر، إعتراض الاشاعرة قائم، ظاهراً، على وجود المفسدة واتجاه القبح في فعل الله، في الموضع الذي نعتبره مقرّباً. هذا الاحتمال لا يمكن دفعه بالقول بأنه ما دام الله قد نهانا عن القبائح، فلاشك أننا على علم بها ولا معنى للقبح الخفي، لأن الإشكال ليس في جهة القبح في فعلنا، بل في جهة القبح في فعل الله. من المعقول تماماً أن يقرب فعل خاص من أفعال الله ـ في نظرنا ـ العبد إلى الله، ولكن في نظر الله، علام الغيوب، يحتوي على عالم من المفاسد العظمى مما لا تدركها عقولنا، ولذلك فإن الله لا يقوم بذلك الفعل، وهكذا يظهر نوع من التزاحم بين مصلحة الفعل التي نفهمها، ومفسدته التي لاندركها. كما أن التكاليف الشرعية غير قادرة على إثبات أو نفي التلازم بين وجود هذه المفاسد وعدمها.

يمكن شرح كلام الخواجة (ره) المختصر «وجوه القبح منفية» في تقرير آخر. إذا قبل بوجود الغرض في أفعال الباري، ويكون الغرض من التكليف الامتثال وتقرب العباد، عندئذ كل فعل يؤدي إلى نقض هذا الغرض يكون قبيحاً ويكون تركه واجباً. يكفي أن نكتشف عقلاً أن الفعل الفلاني يؤدي إلى نقض هذا الغرض لنحكم عليه بالقبح، كما أن الفعل الذي يقابله عقلاً يكون واجباً. في كل فعل يقع مصداقاً للطف، مجرد احراز أن تركه يؤدي إلى نقض غرض الله، يكفي للحكم بقبحه ووجوب الفعل المقابل له. إن دليل حكم العقل على هذا الوجوب هو إحراز تدخل الفعل في حصول الغرض. في هذه الحالات، مجرد احتمال وجود موانع خفية لا يمنع العقل ولا العقلاء من الحكم بالقيام بسلوك معين. وبناء على هذا التقرير، كل عمل يقوم به الله ويؤدي إلى تقرب العبد بالطاعة يكون مطابقاً لغرض الله، ويكون تركه ناقضاً للغرض الإلهي، وبناء على هذا القدر يصبح حكم الوجوب قطعياً. إن مجرد احتمال وجود مفسدة لا يكفي لتجريد هذا الفعل من اتصافه بنقض الغرض، لذلك لا يزول قبحه. بالطبع إذا اثبت العقلاء وجود مفسدة أكبر وأهم، عندئذ يرجح العقل أن ينسب نقض الغرض إلى تلك المفسدة، من باب دفع الأفسد بالفاسد، إلا أن

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

تعيين أمثال هذه المفاسد بالنسبة للّطف صعب للغاية.

حسبما يظهر من هذا التقرير، وعلى خلاف بيان المرحوم العلامة (ره)، العلم بفقدان المفسدة ليس لازماً للحكم بوجوب اللطف، بل إن عدم العلم بوجود مفسدة كاف تماماً، لذلك يمكن تفسير عبارة وجود القبح بأنها تعني أي قبح.

٣ ـ الإشكال الثالث على قاعدة اللطف هو أنه إذا كان اللطف واجباً على الله فتمتنع معارضته، ولكن الله قام بأعمال تعارض اللطف، إذن اللطف ليس واجباً. والدليل على الانتفاع التالي هو الإخبار عن سعادة بعض العباد أو عن شقائهم مما يدعوهم إلى ارتكاب المعاصي، وهذا يعارض اللطف، لأن الذي يعلم أنه سيكون من أهل الجنة، لا يتجنب ارتكاب المعاصي، كما أن الذي يخبره الله الصادق الوعد أنه سيكون من أهل النار لا يتورع عن ارتكاب أي ذنب، لأن الذنوب لن يكون لها أي تأثير في مصيره.

قيل في رد هذا الاشكال إن إخبار الله عباده بسعادتهم وشقائهم لا يحملهم على ارتكاب المعاصي، إذن فهو ليس معارضاً. فالذين وعدوا بالسعادة «ربما كان هذا الإخبار مصحوباً بألطاف إلهية بحيث تمنعه من ارتكاب معصية، أي لا يكون تحريضاً على الإثم»[١٥]. وفيما يتعلق بالإخبار بالشقاء يمكن أيضاً القول بأن المخبر إما أنه لا يؤمن بصدق وعد الله (مثل أبي لهب) وفي هذه الحالة لا يستطيع هذا الإخبار أن يؤثر فيه، كأن يجعله لا أُبالياً بالنسبة للمعصية، وإما أنه يؤمن بصدق وعد الله (مثل إبليس)، وفي هذه الحالة فإن علمه بأن ارتكابه المزيد من الذنوب سيزيد من عذابه، مع ذلك فإن علمه بخلوده في النار لا يزيد في رغبته في ارتكاب الإثم.

يبدو أن مقصود المرحوم العلامة الحقيقي من العبارة التي أوردها لحل إشكال الإخبار بالسعادة يخالف بعض الشيء ظاهر عبارته. ليس المقصود هو أن يقوم الله، إلى جانب هذا الإخبار، بعمل بحيث لا يستطيع حقاً ارتكاب إثم، أي أن تمتنع عليه المعصية، لأن هذا الغرض يتنافى مع أساس التكليف والاختيار الذي يقبل به العلامة. المقصود هو أنه إلى جانب الإخبار بالسعادة (كما يقول المعترض إنه يرغب في الإثم) يسبغ الله لطفاً آخر يزيل أثر ذلك الترغيب، ولما كان هذا الغرض ممكناً فلا يمكن اعتبار الإخبار عملاً يتعارض مع اللطف.

وفي الوقت نفسه يمكن إيراد جواب أشبه بما قيل عن الإشكال الثاني. إذا قبلنا بأن الإخبار عن سعادة شخص يمكن أن يعتبر بنفسه ضد اللطف، فإن افتراض وجود اللطف المضاد لا يحل المشكلة، لأننا يمكن ان نقول، حسبما مضى القول، إن الإخبار نقض للغرض فهو قبيح. فما دمنا لا نعلم قطعاً بوجود مصلحة أقوى تفيد في دفع الأفسد بالفاسد، فمجرد الاحتمال لا يمكن أن يقوم مقام العلم القطعي. لعل الأولى في دفع هذه الأولوية، بحسب مقولة الخواجة والعلامة في باب الثواب والعقاب[١٦]، أن نقول إن الإخبار عن سعادة شخصٍ ما يعني التنبؤ بأنه سوف يطيع ويتجنب المعصية، فيكون مستحقاً للسعادة، فلا يعقل أن نفرض أن هذا الإخبار يؤدي بالمرء إلى ارتكاب الإثم، لأن المعترض يفترض أن المرء يؤمن بصدق المخبر. في هذا الفرض، عندما يخبر المخبر عن أن المرء سيكون من أهل الجنة، يتيقن هذا الشخص بأنه سيقوم بالأعمال الصالحة ويتجنب المعاصي، فيكف يمكن لهذا اليقين أن يدفع المرء إلى عمل السوء؟.

النقد الوحيد الذي يمكن أن يوجّه إلى هذا البيان هو أن تنبؤ الله عن سعادة الشخص يمكن أن يؤول بالشفاعة (وهي تؤدي إلى غفران الكبائر). في هذه الحالة، هذا الإخبار، بدلاً من أن يثير فيه الدافع (الى أنه

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

سوف يقوم بالأعمال الصالحة ويتجنب المعاصي) يدفعه إلى ارتكاب أي ذنب ويغفر له في النهاية. هذا الإخبار إغراء بالمعصية ويتعارض مع اللطف.

على الرغم من أن هذا الإشكال له محله، إلا أنه يمكن القول في رده إن فرضاً كهذا ليس نقضاً حقيقياً لقاعدة اللطف، إذ في هذا الفرض يغفر الذنب الذي يدور الكلام عليه بحسب الإخبار عن السعادة، لذلك فإن هذا الإخبار وإن كان في الظاهر مناقضاً لغرض الله تعالى (أي طاعة الناس)، ولكنه في الواقع لا ينقض الغرض الأصلي (أي تقرب العبد ونيله السعادة الأُخروية)، وذلك لأن العبد لا يبتعد، بسبب ذلك، عن التقرب إلى الله والسعادة. في الاستدلال على قاعدة اللطف لاحظنا بالترتيب أن الغرض من التكليف هو امتنان العباد، والغرض من الامتنان هو التكامل والوصول إلى الكمال الأُخروي والقرب من الله، وبعبارة أخرى، الجنة. لذلك إذا تحقق الغرض الأصلي، برغم الإخلال بالغرض الوسطي، فلا يكون قد حصل نقض الغرض القبيح عقلاً.

يستفاد من بيانات المرحومين الخواجة والعلامة في تقرير قاعدة اللطف ورد الإشكالات المطروحة أن تصورهما للطف هو المعنى العام الذي يشمل فعل التشريع الإلهي وتكليف العبيد وإرسال الأنبياء، كما يشمل فعل الله التكويني الذي يعني نوعاً من التدخل في حياة الإنسان بما يغريه للقيام بعمل الخير، وهذا يتضح أكثر في الأحكام التي تأتي بعد ذلك للطف والتي ينوّه بعضها إلى أن المقصود باللطف هو نصب النبي والإمام (فعل الله التشريعي)، وبعضها الآخر ينوّه إلى أن المقصود هو فعل الله التكويني، المرحوم العلامة في شرح هذا الجزء من كلمات الخواجة (ره) يخرج الحكم الأول من الأحكام، ويعدد خمس خصوصيات للطف، ولكننا، بإضافة الوصف الأول للاحكام، نعد ست خصوصيات لها:

١ ـ إذا منع الله لطفه، يكون من القبيح أن يعاقب المكلفين، ولكن يجوز توبيخهم وذمهم. يتبين من هذا التعبير أن المقصود من اللطف هو بعث الأنبياء والتشريع. في هذا يقول العلامة: إذا منع الله قوماً من لطف تشريعه، فذلك يعني، مثلاً، كأنه قد أوقعهم في المعصية، لأنهم لا يستطيعون بعقولهم أن يميزوا بين الطاعة والعصيان، وبين الحسن والقبيح، فلا يجوز، إذن، معاقبتهم على المعاصي، لأنهم لم يكونوا قادرين على تجنبها، ولكن ذمهم لا مانع فيه، لأن الذم يخص الفعل القبيح نفسه، سواء أكان المكلف مختاراً أم لا، بخلاف العقاب الذي يخص المكلف نفسه.

يمكن أن نفهم من هذا أن المقصود في هذا الباب ليس اللطف بمعنى الفعل التكويني (التوفيق الإلهي)، لأن منع مثل هذا اللطف لا يجعل العقاب قبيحاً، ولا يمكن أن يعتبر حملاً على العصيان، لأنه جاء في تعريفه عدم التدخل في التمكين.

٢ ـ لابد من وجود الانسجام والتناسب بين الفعل الذي يكون مصداقاً للطف، وما يقع موضوعاً للطف، بحيث يكون هذا الفعل مؤثراً في حصول الموضوع. إذا لم يفترض مثل هذا التناسب، فلن يكون لأي فعل الأولية بالنسبة لفعل آخر. إن عبارة المرحوم الخواجة هنا غامضة. إن ما يفهم من شرح العلامة هو أن الصيام، مثلاً، طاعة تقرب العبد من الله. فاذا وهب الله الإنسان قدرة بدنية تعينه على الصيام، فإنه يكون قد لطف به. فهناك تناسب بين إعطاء القدرة البدنية والصيام، فإذا فقد هذا التناسب، فلن يكون هناك أي فرق بين الرعاية المذكورة وأي فعل آخر، كإطالة اللحية مثلاً. من الواضح أن افعالاً من هذا القبيل تكون خارجة عن دائرة شمول مفهوم اللطف.

٣ ـ أن لا يدفع لطف الله المكلف إلى القيام بفعل معين وسلب حق الاختيار منه. وهذا يعني أن المقصود من

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

اللطف شيء أبعد من إنزال الشريعة وإرسال الرسل، لأن هذا المقدار من اللطف لا يجعل منه دافعاً، بالطبع.

٤ ـ إن المكلفين الذين ينالهم اللطف يجب أن يطّلعوا بشكلٍ ما على اللطف. يقول العلامة (ره) في شرح هذه العبارة: إذا لم يطلع المكلف على اللطف وتناسب مع موضوعه، فلا يكون هذا اللطف دافعاً له إلى إتيان الخير. يدل هذا التعبير على أن المقصود باللطف هنا هو التشريع، لأن فعل الله التكويني يمكن أن يؤثر في تحريك الفرد نحو عمل الخير، على الرغم من أن المكلف نفسه قد لا يكون عارفاً بذلك.

٥ ـ قيمة اللطف تزيد عن الحسن، أي إن حسنه يكون في حد الوجوب. المرحوم العلامة يعتبر الفعل «يزيد» لازماً لتوضيح المفهوم المذكور. ويمكن ان نعتبره متعدياً ونفسره على «أن اللطف يزيد جهة حسن الفعل، لأنه، بحسب التعريف، مقدمة للوصول إلى الكمال».

٦ ـ الفعل الذي يكون مصداقاً للطف قد يكون مردداً بين الأفعال. مثلاً، إعطاء الشخص ولداً قد يكون لطفاً به، ولكن لا ولداً خاصاً، بل ولداً بديلاً. وفي حالة أفعال الإنسان، كل كفارة تعتبر لطفاً بالإنسان على البدل، لا على التعيين.

في الحالة المذكورة، كل فعل بديل يجب أن تكون له جهة الحسن. هذا الشرط يؤمّن نظرة فريق من المتكلمين الذين يقولون إن الفعل القبيح يمكن أحياناً أن يكون بديلاً عن أفعال الله (مصداق اللطف)، مثلاً، الظلم الذي ينزله إنسان بإنسان آخر قد يكون بديلاً عن مرض قدره الله لذلك الإنسان وأسبغ عليه من لطفه بذلك الشكل (مثلاً لكي يتذكر العذاب والمشقة).

هاتان الخصيصتان الأخيرتان تتجليان أكثر فيما إذا كان المقصود من اللطف هو فعل الله التكويني، كما يتضح ذلك في الأمثلة التي يضربها العلامة في شرحه.

تتم الاستفادة من قاعدة اللطف في عدد من المباحث، كإبرار وجود العذاب، وإثبات النبوة العامة، وإثبات الإمامة، وإثبات الثواب والعقاب في الآخرة، وإثبات دوام الثواب والعقاب. في جميع هذه المسائل يستفاد من اللطف كحد وسط.

دراسة البراهين

بعد تقرير براهين قاعدة اللطف لابد من التريث قليلاً لمعرفة ما إذا كانت تلك البراهين كافية لإثبات مفاد القاعدة المذكورة أم لا، وعن السند الذي يعتمده كل منها.

برهان الخواجة في شرح التجريد، والبرهان الأول للمرحوم الطبرسي في كفاية الموحدين، يقومان على أساس أن منع اللطف يوجب نقض غرض الله، وبما أن نقض الغرض قبيح عقلي، فإنه ممتنع. وكما يقول المرحوم الطبرسي، لهذا البرهان فرضيتان تسبقانه ولا يقبلهما الأشاعرة. الأُولى هي إن الله، مثل الإنسان، له غرض يتوخاه في كل فعل، والإنسان قادر على كشف تلك الأغراض[١٧].

الثانية هي إن نقض الغرض قبيح عند العقلاء، لذلك فالله لا يقوم به. يصرح الفخر الرازي إن الحسن والقبح ممتنعان في أفعال الله، وقد خصص لهذا باباً تحت عنوان «تكليف ما لايطاق واقع»[١٨]، من الواضح أن ربط هذا الأساس بنتيجة البرهان المذكور غير ممكن.

تسبق هذا البرهان فرضية أخرى الشك فيها يسقطها من الاعتبار، وهي إن غرض الله من التكليف هو إمتثال العباد لأوامر الله. فاذا فرض الله الغرض، يكون الإمتناع عن فعل يؤدي إلى حصول هذا الغرض يعني نقضه. يمكن التشكيك في هذه الفرضية. ما الذي يمنع من أن لا يكون الامتثال هو غرض الله المطلق (اي الامتثال للأوامر سواء أكانت مصحوبة باللطف أم لم تكن) إذ لعل غرض الله امتثال خاص، أي الامتثال من دون الاستعانة بلطف الله. في هذه الحالة اذا منع الله

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

اللطف لم يقع منه أي نقض للغرض.

لعل غرض الله من التكليف أصلاً هو امتحانه العباد لا إرادة امتثالهم. في هذه الحالة لا فرق في أن يمتثل العباد لأوامر الله أو أن يعصوا، فغرض الله من التكليف متحقق، ولا يكون على الله أي الزام، سوى الإعداد لامتحان العباد، ولا يلزم ذلك أن يكون اللطف بالمعنى الاصطلاحي. إن مجرد إرادة الله كمال العباد لا تكفي لإثبات وجوب اللطف، لأن إرادة الله هذه تؤدي في النهاية إلى إقرار الشرع، مما لا يستوجب كمال العباد ولا سقوطهم.

البرهان الثاني للمرحوم الطبرسي يتوقف على وجود الداعي عند الله، وهو إيصالهم إلى الكمال عن طريق إطاعة أوامر الله ونواهيه. يمكن عموماً القبول بأن الله تعالى يملك الداعي لاستكمال عباده، واللطف، بمعنى كل فعل يقربهم إلى الطاعة، يكون ضمن قدرة الله. ولكن بالتركيب بين هاتين المقدمتين لا نصل إلى وجوب هذا الفعل على الله، إذ إن الزعم بعدم وجود أي مانع في الواقع كلام فارغ ولا برهان عليه. لو أمكن عقلاً أن نحرز عدم وجود أي مانع، عندئذ يكون البرهان قد تم، ولكن إحراز هذا الأمر أصعب بكثير من إحراز جوانب الحسن في الفعل، وذلك ما يراه الطبرسي نفسه أنه يقع ضمن نطاق قدرة علام الغيوب فقط[١٩]. إنه لمن العجيب أن يعتبر إحراز حسن الفعل غير ممكن مع أن ذلك ينبغي أن يكون سهلاً على الإنسان باحتساب ثماره، ولكنه يرى أن إحراز عدم وجود المانع عند الله تعالى في الفعل الإلهي ممكن، بل محقق، كما لو كان بديهياً.

البرهان الثالث للمرحوم الطبرسي قائم على قاعدة وجوب الأصلح، وهو ما لا يقبله الأشاعرة، لأن أصلحية التقرب بالطاعة لا يمكن أن تستنتج منه وجوبه على الله. إنه يرى أن رعاية مصالح العباد ليس واجباً لأنه «لا يُسأل عمّا يفعلُ وهُمْ يُسْألُون»[٢٠]، ثم إن هناك نوعاً من المغالطة في هذا البرهان، فكبراه تقول إن فعل الله دائماً هو الأصلح والأتم. ومعنى أصلح الأفعال في هذه الكبرى هو أنه إذا كان لفعل ما مراتب من الكمال والتمامية، فاذا صدر الفعل عن الله، وهو الكمال المطلق، كان فعله أيضا أكمل الأفعال وأتمها وأعلاها مرتبة. أما صغرى البرهان فتقول إن اللطف أصلح للعباد، والمغالطة هي أن هذا الأصلح والأصلح في الكبرى بمعنى واحد، مع أن الأمر ليس كذلك، فإن الفعل الأصلح للعباد ليس من الضروري أن يكون أصلح الأفعال، وعليه فإن الحد الوسط لم يتكرر في هذا البرهان.

الظاهر إن الشبهات المذكورة تزلزل قاعدة اللطف. وتكون النتيجة أن يلف ستار الشك كلتا مجموعتي مصاديق اللطف. مع ذلك فإن أقوى براهين هذه القاعدة هو الدليل الأول الذي يتم بالافتراض المذكور السابق عليه. لكن الإثبات العقلي لموضوع الغرض من التكليف هو امتثال مطلق العباد يبدو صعباً للغاية. وفي الوقت نفسه هذه القاعدة قائمة على قبول الحسن والقبح العقليين، ويظهر أنها لا يمكن إثباتها وفق مذهب الأشاعرة.

ولعل هذا هو الذي حمل المعتزلة على القول بوجوب اللطف وفقاً للتعريف الوارد في اصطلاح قاعدة اللطف. كما أن السيد المرتضى (ره) قال بوجوب اللطف وضرورته من باب العدل، بينما الاشاعرة وبعض المتكلمين الشيعة لا يرون لطف الله مستنداً إلى العدل، بل مأخوذ من وجود الله[٢١].

٤ ـ مقارنة فكرة اللطف عند الشيعة وعند الأكويني

بعد تصوير مكانة اللطف في الكلام الشيعي والتصور المسيحي له عند توما الأكويني، يأتي دور اجراء المقارنة عن فكرة اللطف في هاتين العقيدتين. وسوف نجري المقارنة في قسمين؛ القسم الأول يشمل النقاط المشتركة بينهما في فكرة اللطف، وفي القسم

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

الثاني أهم وجوه الاختلاف.

نقاط الالتقاء

١ ـ يستفاد من التوضيحات السابقة أن تصور توما الأكويني، والمرحوم الخواجة والعلامة والطبرسي، عن اللطف هو أنه تدخل الله في حياة الناس بهدف خلاصهم. إن تصور القوّة التي تحرك روح الإنسان نحو الخير، في صيغة الفكرة المحركة الأرسطية الأولى قريب كثيراً من التصور الشيعي عن التوفيق، والإمداد، وتقريب العبد من الطاعة وإبعاده عن المعصية. للنهي انطباعان متحدان في الغاية ومختلفان في التفاصيل. كذلك هو الانطباع المسيحي عن عملية الخلق، والحياة، والصلب، والبعث، وعروج المسيح عيسى تحت عنوان الوحي الإلهي، واللطف، والعطف الإلهي من أجل خلاص الإنسان في الحياة الخالدة، وتحريره من براثن الخطيئة الأولى، والتوجه العام، بغض النظر عن خصوصيات الكلام الإسلامي (مثل التجسيد، والتثليث، والصلب...) يعتبر من أهم مصاديق اللطف الإلهي المتمثلة في البعثة، والتكليف، والتشريع، وفعل الله التشريعي لضمان الخلاص الأُخروي للإنسان والذي كان ـ حسب عقيدة المتكلمين الشيعة ـ السبب في تقوية مصالح عظيمة للإنسان. إن النواة المركزية لفكرة «الحياة الخالدة في المسيح عيسى»، بعد حذف الزخارف، تشبه إلى حد لافت للنظر فكرة استكمال الإنسان عن طريق التقرب إلى الله بالطاعة والحصول على رضوان الله والحياة الأُخروية. في كلتا العقيدتين اللطف هو تدخل الله، برغم أن إحداهما تراه من فعل الله والاخرى تراه قدرة لاهوتية.

٢ ـ كان الأكويني يرى الحاجة إلى لطف الله، كما في هذه الحالة، نظراً إلى أن الإنسان، بدونه، لا يستطيع اكتساب خير أفضل مما هو مقتضى طبيعته. لقد رأينا في الكلام الشيعي أيضاً أن اللطف، بمعنى إرسال الرسل والتشريع، هو السبيل الوحيد لوصول الإنسان إلى كمال أرفع وهو الغرض الأصلي من خلق الإنسان. بقليل من التوسع يمكن القول بأن كلتا العقيدتين تجيزان الإنسان أن يستعين بعقله لتحقيق حاجاته العادية والطبيعية، ولكنه يعجز عن معرفة الخير والصلاح الساميين.

٣ ـ إن السعادة الأُخروية في نظر كلا الاتجاهين الكلاميين لا تتحقق إلّا بلطف إلهي فقط، في الكلام الشيعي الذي يرى عقل الإنسان عاجزاً عن إدراك المصالح والمفاسد الأُخروية، يقال إن الشرع هو الذي يتكفل ببيان ذلك، وإن اللطف يحرك الإنسان نحو الطاعة، ومن ثم نحو الجنة. وفي الكلام المسيحي، الذي يرى الحياة الخالدة والخلاص الأبدي أرفع من جميع أعمال الإنسان، فلا يمكن أن يكون معلوله، بل يكون ذلك عن طريق اللطف الإلهي فقط، أما في نظر الذين يرون أن الشأن الأصلي للدين هو تعمير الآخرة، فذلك يرجع إلى الاتجاه السابق.

٤ ـ إن اللطف المتفضل به في رأي الأكويني، وهو بمعنى اللطف الذي لا يرتبط مباشرة بخلاص الشخص، بل لجعله وسيلة لخلاص الآخرين، حيث تظهر فيه آثاره المختلفة، كالإعجاز، والإخبار بالغيب، والتحدث بلغات مختلفة وغير ذلك، وبقليل من التساهل يمكن تطبيق ذلك على اللطف التشريعي بمعنى إنزال الكتب وبعث الأنبياء وحتى نصب الأئمة لهداية الناس. الخصوصيات المذكورة في الكلام الشيعي هي أوصاف نراها كلها في الأئمة، كما أن اللطف المطهّر تعبير آخر عن اللطف بمعنى الفعل التكويني الذي يقرّب العبد إلى الطاعة ويبعده عن المعصية، على الرغم من زوائده الملحقة به.

على كل حال يمكن أن تستنتج أن النواة الأصلية لفكرة اللطف في كلتا العقيدتين مشتركة ذات شقين أساسين: تجلّي العناية الإلهية بالإنسان عن طريق بعث

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

الأنبياء وإنزال الوحي وكذلك مد يد العون الدائم إلى بني البشر لفعل الخير بهدف تخليصهم وهو الغاية النهائية للخلق. أما الاختلافات بينهما فهي في أُمور ثانوية تقريباً.

نقاط الافتراق

١ ـ أهم فرق شكلي في طرح مسألة اللطف بين الكلام الشيعي والكلام المسيحي من وجهين اثنين، الأول هو أنه في الكلام الشيعي الاهتمام الرئيس موجه إلى إثبات وجوب اللطف عقلياً وحل غوامضه وإشكالاته، أما عند توما الأكويني، فلا نلاحظ جهداً كبيراً لإثبات اللطف، بل إنه صرف همه لتوجيهه عقلياً لأن الكتاب المقدس وآباء الكنيسة (أي الدليل النقلي) اعتبره أمراً مسلماً به. الوجه الثاني الذي ينبع من هذا الأصل نفسه هو أن الكلام الاسلامي يخلو من كثير من التكلفات التي يقبلها الأكويني لتوجيه كمية اللطف وكيفيته وخواصه وماهيته، وهي مقولة لاهوتية.

فمثلاً الكلام على ماهية اللطف وعما إذا كان عرضاً أو جوهراً، وهل هو فضيلة ذات حقيقة واحدة أم لا، هل يتقبل الزيادة والنقص وغير ذلك، مما يشغل جانباً كبيراً من رسالة الأكويني، وهذا قد أهمله الكلام الإسلامي كلياً، إذ يبدو أن المتكلمين الشيعة لم يجدوا ضرورة في بحثه. إن تغلب عقلانية المتكلمين الشيعة على النقل يمكن أن يعتبر من جملة أدلة هذا الأمر، على العكس من ذلك، كان اهتمام الأكويني أصلاً منصبّاً على جعل المفاهيم الدينية المأخوذة من السنة المسيحية عقلية، وهو أهم سبب لعنايته بهذه المسائل.

٢ ـ الفروق في محتوى بحث اللطف في كلا الطرفين ترجع جذورها إلى اسسها المختلفة في المباحث الكلامية الأُخرى، مثل الوحي، والشريعة، وعلاقة الله بالإنسان، أسماء الله وأوصافه، العلاقة بين الدنيا والآخرة، وغير ذلك. دراسة هذه الاختلافات تتطلب كتابات عديدة ومفصلة، وهي تتجاوز مقدرة الكاتب العملية، لذلك نكتفي بالفروقات الخاصة بهذا البحث.

إن الامتزاج الشديد بين فكرة اللطف وأفكار «الذنب الجبلّي» و«الإصلاح» و«المعرفة» من أهم وجوه الاختلاف. سبق أن رأينا أن اللطف، عند الأكويني، الجار الملاصق للذنب الجبلي، لأن الإنسان المصاب بالذنب الجبلي قد انحرف عن طبيعته الأُولى، واشتد ميله إلى الشر، وأغلق باب المعرفة في وجهه. إن إنساناً كهذا لا أمل له في النجاة، إلّا أن يتم «إصلاحه» الإلهي عن طريق اللطف. إن الإصلاح بكل ثقله المعنوي والقيمي يعتبر أعظم عمل يقوم به الله بمعنى من المعاني كالتحرر من وزر الذنب الجبلي، وإرجاع القوى إلى حالتها الفطرية، وفتح أبواب المعرفة العليا الإنسانية والإلهية، وإنجازات اللطف الإلهي إذ تعتبر من الألطاف الإلهية على الإنسان.

لا أثر لكل هذا في الكلام الشيعي أبداً. فكما نعلم، لا يؤمن الكلام الشيعي بالذنب الجبلّي، في بحث التوبة والإحباط والتكفير مما يمكن أن يعتبر قريباً من مفهوم «الإصلاح» المسيحي. إن المتكلمين لم يشيروا حتى بكلمة واحدة إلى قاعدة اللطف، ولا أثر أيضاً لمقولة المعرفة وعلاقتها باللطف، طبيعي إن معرفة الأُمور الخاصة بالحياة الأُخروية، تبعاً للسعادة الأُخروية، منوطة باللطف بمعنى بعث الأنبياء. غير أن هذه المعرفة لا موضوعية لها من حيث المعرفية، بل هي جزء صغير جداً بل لا شيء من مسألة الخلاص الأُخروي الأصلية المتعلقة أكثر بالعمل.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]

الهوامش

١ ـ دائرة معارف الدين، المدخل Grace.
٢ ـ قاموس اكسفورد، المدخل اعلاه.
٣ ـ الإنجيل، رسالة إلى الروم، الفصل الثامن، ١ ـ ١١.
٤ ـ المصدر السابق، الفصل الثالث، ٢٤.
٥ ـ المصدر السابق، الفصل الخامس، ٣.
٦ ـ المصدر السابق، الفصل السادس، ٦ ـ ١٥.
٧ ـ دائرة معارف الدين، المدخل Grace.
٨ ـ رسالة في باب اللطف، الفصل الثاني، الباب الثاني، جواب الإشكال الثاني.
٩ ـ المصدر السابق، الباب الرابع.
١٠ ـ إنجيل يوحنا، الفصل الثالث، الآية ٦.
١١ ـ رسالة في باب اللطف، الفصل الرابع، الباب الثاني.
١٢ ـ الإنجيل، رسالة إلى الروم، الفصل السادس، الآية ٢٣.
١٣ ـ كفاية الموحدين، ج ١، ص ٥٠٥.
١٤ ـ شرح التجريد، ص ٣٥٠.
١٥ ـ المصدر نفسه، ص ٣٥٣.
١٦ ـ المصدر نفسه، ص ٤٣٣.
١٧ ـ شرح المواقف، ج ٨، ص ٢٠٢.
١٨ ـ المطالب العالية ج ٣، ص ٢٩١ و ٣٠٥.
١٩ ـ في الصفحة ٥٠٨ من (كفاية الموحدين)، في الجواب الكلي عن الإشكالات المصداقية على اللطف يقول: «لابد من إحراز جهات الحسن الخفية.. والعقل أيضاً لا اكتناه له بجميع المواضع الخفية، بل الإحاطة به غير ممكن، إلّا لعلام الغيوب...».
٢٠ ـ المطالب العالية، ج ٣، ص ٣٢٦ ـ ٣٢٩.
٢١ ـ مكدر موت، آراء الشيخ المفيد الكلامية، ص ١٠٥ و ٥٠٢.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2024-04-23]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1420.7.4.1.8]